مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

سنة الاستبدال في القرآن الكريم: دراسة موضوعية

د. حمادة ربيع عبدالحكيم عبدالرحيم

مدرس بقسم الدراسات الإسلامية

كلية الآداب– جامعة المنيا

DOI: 10.21608/qarts.2022.114459.1333

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – العدد (٥٦) يوليو ٢٠٢٢

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

سنة الاستبدال في القرآن الكريم: دراسة موضوعية

الملخص:

تنتظم السنن الإلهية في القرآن الكريم مجموعة من السنن التي تندرج تحتها. والتي من بينها سُنَّة الاستبدال. ولسريان هذه السنة أسباب ودواعي مادية، وأخرى معنوية. وقد تعددت معاني لفظة الاستبدال في القرآن بين التغيير، والابدال، والتبديل، والبدل.

إنّ سُنَّة الاستبدال تضع المجتمع المسلم أمام مسئولياته الرسالية والحضارية، وكلما ازداد وعي المجتمع بهذه السُنَّة كان إدراكه لأهمية الإصلاح، والتقويم، والمراجعة أمرًا لازمًا فعله. وبذلك تترسخ القناعة لديه بوجوب الإصلاح، وأهمية دور المصلحين في حماية المجتمع، من التقهقر والانكماش والاندثار الحضاري.

الكلمات المفتاحية: سنة الاستبدال، السنن الإلهية، التولي عن منهج الله، الإعراض عن أمر الله.

المقدمة:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَعَالِي عَنْ الشَّبِيهِ وَالنَّظِيرِ، الْمُنَزَّهِ عَنْ وَصْفٍ يُدْرِكُ بِهِ حِسٌّ، أَوْ يَخْتَلِجُ بِهِ ضَمِيرٌ. أَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَسْبَغَ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَأَبْلَغَ مِنْ دَقِيقِ حِكْمَتِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَهَادَةَ مُتَحَقِّقٍ لِعُبُودِيَّتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدُه وَرَسُولُه، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِه، وَمَنْ تَبِعَهُم بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِين.

وبعد،،،

فقد أبان القرآن الكريم في كثير من آياته عن ماهية سنن الله تعالى في كونه؛ لِمَا لها من أهمية بالغة في حياة الأفراد والأمم، فهي تُبصرنا بكيفية السلوك القويم حتى لا يقع الإنسان في الخطأ، والعثار، والغرور، والأماني، وبذلك ينجو ممّا حذره الله منه، ويظفر بما وعده به. كما تُؤكد الآيات على أنّ هذه السنن تجري باطّراد وثبات – مهما تغير الزمان والمكان – فمتى توافرت لها مقوّمات ظهورها – التي أرادها الله تعالى– وقعت، وبذلك يكون الاطّراد والثبات في السنن حُجّة الله على خلقه أجمعين، المؤمن منهم والكافر. والمعنى: أنّها غير قابلة للتبديل أو التغيير، قال تعالى: **{فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً}**(١).

وهذا الثبات والاطراد كلاهما جعل قيام العلم أمرًا ممكنًا؛ إذ لو تغير نظام الوجود وخصائص الأشياء من مكان إلى آخر، أو من زمان إلى زمان؛ لَمَا كانت هناك حقائق علمية ثابتة. وبناءً على هذه السنن التي سنها الله تعالى في الكون تأتي النتائج، من قوةٍ، أو ضعفٍ، أو نصر، أو هزيمة.. وغير ذلك.

١() سورة فاطر، جزء من الآية، (٤٣) .

والعلم بسنن الله ﷻ من أهم العلوم وأنفعها، ولأهميتها أمرنا القرآن الكريم أنْ نسير في الأرض لأجل اكتشافها، ومعرفة الحقائق المتصلة بها، قال تعالى: **{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}**[1].

ولَمَّا كان لمعرفة هذه السنن من أهمية بالغة في حياة كل مسلم؛ بل وحياة البشرية جمعاء. ونظرًا لاستجابة علمائنا لضرورة البحث في هذا العلم العظيم، وإدراكهم وجوب الاهتمام به كان لا بد من تكاتف جهود العلماء لدراستها، ثم إخراجها في علم خاص له أبوابه وفروعه؛ لِمَا لها من دور كبير في بيان المراد من كلام الله تعالى على الوجه الصحيح، وكذلك معرفة ما يُمكن أنْ يكون عليه المستقبل وفق خصائصها[2].

هذا، ولَمَّا كان الهدف الذي تسعى إليه العلوم قاطبة هو معرفة السنن التي تحكم مفردات هذا الكون؛ فقد جاءت هذه الدراسة لتحاول البحث في التفسير عن الأسباب أو الدواعي التي تحكم مفردات سنة الاستبدال؛ لِمَا لهذه الدواعي من بالغ الأثر في تحديد بقاء الأمم من زوالها. وعليه، فقد جاءت دراستنا، تحت عنوان: **سنة الاستبدال في القرآن الكريم " دراسة موضوعية ".**

أهمية الدراسة وأسباب اختيارها:

ترجع أهمية الدراسة وأسباب اختيارها إلى عدة أمور، هي:

- إنّ هذا الموضوع على قدر أهميته، لم يلق عناية كافية من المتخصصين والباحثين المعاصرين. وأظن أنّ الاهتمام به من المهمات التي ينبغي أنْ يتصدى لها العلماء بالدراسة والبحث، وذلك في كل عصر.

١() سورة العنكبوت، جزء من الآية، (٢٠) .

٢() انظر: محمد رشيد بن علي رضا (ت١٣٥٤هـ)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، جـ١، ص٢١.

- تَوَفُر القليل من الدراسات التي اهتمت بهذا الجانب، ذي الأهمية البالغة في حياة الأمة المسلمة خاصة, والبشرية عامة، ولا تزال الحاجة ماسة إلى طرْق باب هذا الموضوع ودراسته دراسة مستفيضة.
- حاجة المسلمين اليوم إلى توحيد الكلمة، وجمع الصف، وذلك لن يتأتى إلاّ بالتطلع لمستقبل أفضل، وهذا التطلع لا يكون إلاّ بمعرفة حقيقة السنن عامة، وسنة الاستبدال خاصة، وكذا الفهم الدقيق لعلوم الدين، وربطهما بالواقع المعاش.
- الرغبة الشخصية في دراسة قضية الاستبدال؛ لِمَا لها من دور كبير في ضبط إيقاع الأسس التي يُمكن أنْ تتمسك بها الأمة الإسلامية، من أجل أنْ تظل في مكان الصدارة بين الأمم.

تساؤلات الدراسة:

للدراسة عدة تساؤلات سوف تجيب عنها، هي:

- ما المقصود بسنة الاستبدال في القرآن؟
- ما فوائد معرفة السنن؟
- ما السبيل إلى معرفة سنن الله تعالى؟
- هل يخضع جميع البشر لهذه السنن؟
- ما الدواعي التي تُسْتَبْدَل منْ أجلها الأمم في القرآن ؟

الدراسات السابقة:

هناك بعض الدراسات التي خصت السنن بالدراسة والبحث، ولعل من بينها.

- **الدراسة الأولى:** جاءت تحت عنوان: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، للباحث: د. عبد الكريم زيدان، من مطبوعات مؤسسة الرسالة، طبعة بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م. وقد ناقش فيها الباحث: مجموعة من السنن المتعلقة بسلوك البشر وأفعالهم في الدنيا – بصورة عامة – وما يترتب عليها من نتائج في الدارين.
- **الدراسة الثانية:** وردت بعنوان: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، للباحث: شريف الخطيب، من مطبوعات مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م. وقد دار الحديث فيها عن السنن الإلهية في الحياة الإنسانية بوجه عام أيضًا.
- **الدراسة الثالثة:** بعنوان: السنن الكونية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل، للباحث: عماد عبد الكريم خصاونة، من إصدارات مجلة المنارة، المجلد١٥، العدد٢، ٢٠٠٩م. وفيها دار الكلام عن تذكير الأمة الإسلامية بموضوع الاستشراف، من خلال ذكر بعض السنن الكونية، على اعتبار أنّ للاستشراف دورًا عظيمًا في تجلية معالم المستقبل، وفق منظور القرآن الكريم، والذي كان وما يزال من العلوم الاستراتيجية المهمة في عالم اليوم، وذلك للأمم التي تبحث عن مكان لها في المستقبل، في عالم تتصارعه القوى.

وبذلك لم تقّدم الدراسات السابقة بجملتها شيئًا عن سنة الاستبدال، منْ ناحية التقعيد والتأصيل لها، وكذا مناقشة دواعيها وموجباتها، وذكر النماذج التطبيقية من وقائع تاريخية مستبدلة في القرآن، ومقارنتها بواقع الأمة الإسلامية الحالي. فَعَمَدْتُ – بعد توفيق الله تعالى وعونه – إلى دراسة ما أشرت إليه.

منهج الدراسة:

تقتضي سلامة الوصول إلى نتائج سليمة؛ أنْ أتبع في دراستي هذه: المنهج الاستقرائي التحليلي، المقترن بالمنهج الاستنباطي، الذي يعتمد على عملية القراءة المتأنية وتحليلها، ومن ثَمّ استنباط الفوائد منها، بما يخدم خطة الدراسة.

خطة الدراسة:

تحقيقًا للأهداف والغايات المرجوة من الدراسة، فقد احتوت على مقدمة، تناولت فيها: الأهمية، والأسباب التي دعت إلى اختيارها، والتساؤلات التي تدور حولها، والدراسات السابقة عليها، والمنهج المتبع للوصول إلى نتائج صحيحة، والخطة التي ستقوم عليها، ثم أردفت ذلك بمبحثين، هما:

- **المبحث الأول:** حقيقة الاستبدال. **وفيه أربعة مطالب:**
  - **المطلب الأول:** تعريف السنة لغة واصطلاحًا.
  - **المطلب الثاني:** تعريف الاستبدال والألفاظ ذات الصلة لغة واصطلاحًا.
  - **المطلب الثالث:** معاني الاستبدال في القرآن.
  - **المطلب الرابع:** معاني الألفاظ ذات الصلة في القرآن.
- **وأما المبحث الثاني:** دواعي الاستبدال في القرآن. **ففيه أربعة مطالب:**
  - **المطلب الأول:** دواعي استبدال قوم نوح عليه السلام.
  - **المطلب الثاني:** دواعي استبدال قوم هود عليه السلام.
  - **المطلب الثالث:** دواعي استبدال قوم صالح عليه السلام.
  - **المطلب الرابع:** دواعي استبدال الأمة الإسلامية في العصر الحاضر.

وبعد المبحثين، جاءت الخاتمة، وبها أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول

حقيقة الاستبدال

لأنّ الشيء فرع عن تصوره، فقد بدأت الدراسة بتعريف مفردات العنوان: السنة، الاستبدال، الألفاظ ذات الصلة.

المطلب الأول: تعريف السنة لغة واصطلاحًا.

أولًا: السنة لغة: " السِّين والنون أصلٌ واحد مطرد، وهو جريان الشيء واطّراده في سهولة"[١]. " السَنَنَ: الطريقة، يقال: استقام فلانٌ على سَنَنٍ واحد "[٢]، " ويقال: امض على سَنَنِك وسُنَنِك، أي: على وجهك "[٣]، " وسَنَّن المنطق: حَسنه "[٤]. وسنن الله: حُكْمُه وأَمْرُه ونَهْيُه[٥]، " والسُّنّة: السيرة، حسنة كانت أو قبيحة "[٦].

مما سبق يمكن القول: بأنّ السُّنّة في اللغة، تعني عدة معاني، هي: الطريقة، والحُكْمُ، والأمر والنهي، والسِّيرة.

١() أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، أبو الحسين(ت ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م، باب(سن)، جـ٣، ص٦٠.

٢() محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي(ت٣٩٦هـ)، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م، باب(سنن)، جـ١، ص ٣٢٦.

٣() محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(ت٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، د.ت، باب(سنن)، جـ ١٣، ص ٢٢٠.

٤() محمد بن يعقوب الفيروز آبادي(ت ٨١٧هـ)، القاموس المحيط، د.ت. فصل (السين)، جـ١، ص ١٥٥٨.

٥() انظر: نفس المرجع، فصل(السين)، ١/ ١٥٥٨.

٦() ابن منظور، لسان العرب، باب(سنن)، ١٣/ ٢٢٠.

ثانيًا: السنة اصطلاحًا.

يُعرف الإمام الطبري السنن عند تفسير قوله تعالى: **{قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ}**[١]. فيقول: " يعني مثلات سير بها فيهم، وفيمن كذبوا به من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم، بإمهالي أهل التكذيب بهم، واستدراجي إياهم، حتى بلغ الكتاب فيهم أجله الذي أجلته لإدالة أنبيائهم وأهل الايمان بهم عليهم، ثم أحللت بهم عقوبتي، ونزلت بساحتهم نقمتي، فتركتهم لمن بعدهم أمثالًا وعبرًا "[٢].

ويُعرفها الإمام الشوكاني بقوله: " ما سنه الله في الأمم من وقائعه. أي: قد خلت من قبل زمانكم وقائع سنها الله في الأمم المكذبة "[٣].

ويعرفها الإمام رشيد رضا، بقوله: " جَاءَ الْقُرْآنُ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ أَنَّ مَشِيئَةَ اللهِ – تَعَالَى – فِي خَلْقِهِ إِنَّمَا تَنْفُذُ عَلَى سُنَنٍ حَكِيمَةٍ وَطَرَائِقَ قَوِيمَةٍ.. وأَنَّ لَهُ سُنَنًا عَامَّةً جَرَى عَلَيْهَا نِظَامُ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلُ. وَأَنَّ مَا وَقَعَ لَهُمْ مِمَّا يَقُصُّ حِكْمَتَهُ عَلَيْهِمْ هُوَ مُطَابِقٌ لِتِلْكَ السُّنَنِ الَّتِي لَا تَتَحَوَّلُ وَلَا تَتَبَدَّلُ "[٤].

ونخلص مما سبق، إلى وجود تشابه في الدلالة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، فإنّ من معاني السنة في اللغة الطريقة، وفي الإصلاح: ما سنه الله تعالى من الطرائق القويمة في الأمم من نواميس وقوانين.

١() سورة آل عمران، جزء من الآية، (١٣٧) .

٢() محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري(ت٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقة حميد العطار، دار الفكر، د.ت، جـ٢٨، ص ١٧١.

٣() محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني(ت١٢٥٠هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت، د.ت، جـ١، ص ٣٨٣.

٤() رشيد رضا، تفسير المنار، ١١٧/٤.

وعليه، فإذا ما أضيفت دلالات المعنى اللغوي والاصطلاحي جنبًا إلى جنب، أمكن التوصل إلى تعريف مختار للسنن يتناسب مع الدراسة التي بين أيدينا: وهي بذلك: **ما سنه الله تعالى في الأمم من الطرائق القويمة، التي تَنْفُذُ وفق ناموس عام، تتشابه فيه النتائج، إذا تماثلت فيه المقدمات.**

أما بالنسبة **لسنة الاستبدال** كمصطلح مركب، فيمكن تعريفه، بأنّها: **إحدى الطرائق القويمة التي سنها الله تعالى، لمجازاة ومعاقبة كل من أعرض عن سبيله ومنهجه، بعد وعظه وإمهاله.**

ثالثًا: السنن الإلهية والسنن الكونية.

شاء الله ﷻ أنْ يُقرر سننًا جارية، جعلهاﷻ للمؤمن به والكافر بمثابة نواميس وقوانين يعرفون بها أفعاله ﷻ في خلقه، حتى إذا ما انتصر أحدهم لا يقول: هذه خارقة لي. وإنّما ليتحقق العلم اليقيني لدى الجميع، أنّه ما نُصر هذا إلاّ لأنّه أحسن فهم مفردات سنن الله ﷻ في عباده. والقرآن الكريم يرد المسلمين دائمًا إلى سنن الله ﷻ في هذا الكون؛ ليعلم المسلم وغير المسلم أنّ من وراء ما يجري حِكمًا لله ﷻ في خلقه.

هذا، وتنقسم السنن بمجموعها إلى قسمين، سنن إلهية، وسنن كونية، ولبيان الفارق بينهما يمكن ذكر تعريف لكل منهما، وذلك على النحو الآتي:

أ- **السنن الإلهية**، هي: " مجموعة القوانين التي سنها الله ﷻ لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعًا، على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها "[1].

١() د. أحمد محمد كنعان، أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، د.ت، ص٣٧.

ب- السنن الكونية، هي: السنن " التي تتعلق بالأشياء والظواهر والأحداث المادية والطبيعة الملموسة والمشاهدة غالبًا "[١]. بمعنى أنّها النواميس الحاكمة في الطبيعة، وفي نظام الكون، بأمر الله تعالى، من ناحية تركيبه، وحركته، ومجرياته. كما تسمى أيضًا: الآيات الكونية، وآيات الآفاق. وهذا النوع من السنن لا خروج لأحد عنه؛ لأنّه خاضع للقدر الكوني، ومتعلق بالخلق والمشيئة الكونية؛ فهو يقع حتمًا لا محالة.

والملاحظ من التعريفين السابقين لكل من السنن الإلهية والكونية، أنّ العلاقة بينهما علاقة عموم وخصوص؛ بمعنى أنّ السنن الإلهية عند اطلاقها، فإنّها تشمل سنن الله في الكون المادي، وسنن الله في الإنسان، بالنظر إليه مفردًا، أو مجتمعًا، إذن فالسنن الإلهية أعم من السنن الكونية.

مما سبق يمكن القول: بأنّ هذه الدراسة تختص بنوع من السنن الإلهية، وهي السنن المتعلقة بأفعال الإنسان في الحياة، فهي تتناول مظهرًا من مظاهر تصرفات مجموع الأمة، ولا تعنى بتصرفات آحاد الأفراد.

رابعًا: أهمية دراسة السنن.

لدراسة سنن الله ﷻ في الكون أهمية كبيرة، منها ما ذكره الإمام الألوسي في تفسير قوله تعالى: **{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى**

١() د. كمال قدة، السنن الكونية والاجتماعية من خلال القرآن الكريم، دراسة موضوعية، جامعة الشهيد حمة الأخضر، د.ت، ص١٤٥، نقلًا عن البروفسير: توفيق بن أحمد الغلبزوري، السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم.
http://iiit.org.ma/index.phpD

لِلْمُسْلِمِينَ}[1]. " والمراد من **{كُلّ شيء}** على ما ذهب إليه جمع ما يتعلق بأمور الدين. أي: بيانًا بليغًا لكل شيء يتعلق بذلك، ومن جملته أحوال الأمم مع أنبيائهم "[2].

والواضح من قول الإمام الألوسي: أنّ معرفة أحوال الأمم مع أنبيائهم تعد من جملة الدين؛ لأنّها تُعْنى بما جرى معهم، وما حل بهم بسبب سلوكهم المخالف، وفقًا لسنة الله النافذة الثابتة، كما تُعْنى بما أراده الله من الأمة المسلمة، من الاتعاظ والاعتبار بما حدث مع هذه الأمم. والمتحصل من ذلك كله: أنّ معرفة سنن الله تعالى جزء من معرفة الدين، أو هي جزء من الدين– إنْ صح التعبير– لذلك؛ فالمعرفة بها ضرورة واجبة؛ لأنّها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في هذه الحياة.

ويقول الإمام ابن تيمية: " وَإِنَّمَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا قصَصَ مَنْ قَبْلَنَا مِنْ الأمَمِ لِتَكُونَ عِبْرَةً لَنَا، فَنُشَبِّهُ حَالَنَا بِحَالِهِمْ، وَنَقِيسُ أَوَاخِرَ الأمَمِ بِأَوَائِلِهَا، فَيَكُونُ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ شَبَهٌ بِمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ الْمُتَقَدِّمِينَ، وَيَكُونُ لِلْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ شَبَهٌ بِمَا كَانَ لِلْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ مِنْ الْمُتَقَدِّمِينَ "[3].

ويؤكد ذلك أنّ: " السنن هي النظام الإلهي لحياة البشر، ومعرفتها تعني القدرة على تفسير التاريخ تفسيرًا صحيحًا، والأمة التي لا تعرف هذه السنن، أو لا تعرفها

١() سورة النحل، جزء من الآية، (٨٩) .

٢() محمود الألوسي أبو الفضل(ت١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، جـ١٤، ص ٢١٤.

٣() أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني تقي الدين أبو العباس(ت ٧٢٨هـ)، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، جـ٢٨، ص ٤٢٥.

معرفة صحيحة، أمة غير مأمونة العثار، تخبط خبط عشواء، وتسعى إلى حتفها بظلفها"[١].

خامسًا: فوائد دراسة السنن.

لدراسة سنن الله ﷻ في الكون فوائد عظيمة، منها:

- التأكيد على كمال العدل الإلهي المُطلق في أنّ سنن الله تعالى ثابتة، متى توفرت أسبابها، وقعت نتائجها، دون محاباة لأحد، أو تأجيل لها، أو تعطيل لنظامها.
- التأكيد على أنّ الكفر ملة واحدة، وأنّ قلوب الطغاة متشابهة على مر الزمان؛ ولذلك كانت ردود فعلهم على دعوة الأنبياء مشابهة لبعضها. قال تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ، وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}**[٢].
- الاتعاظ بما حدث مع الأقوام السابقين، والاستفادة من ذلك في تعظيم قدر الله ﷻ في قلوب المسلمين.
- العمل على الاهتمام بحسن ترتيب الأولويات، بحيث يوضع كل شيء في نصابه، بالقدر والكيفية المناسبة؛ لأنّ واقع السنن الإلهية يحتم علينا أنّه كلما كانت المدخلات حقيقية، كانت المُخرجات أقرب إلى الصواب.
- اختصار الوقت والاستفادة من الكم الهائل من خبرات البشر المتراكمة، في كل الأحوال وشتى المجالات. فلا يُعقل مثلاً في أي مجال من المجالات أنْ كل

١() د. حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم من خلال القرآن الكريم، دار الهدي النبوي، مصر، دار الفضيلة، السعودية، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص٤٨.

٢() سورة سبأ، الآيتان، (٣٤،٣٥) .

عالم يأتي يبدأ من الصفر، إذ الواجب أنْ يبدأ من حيث انتهى الآخرون؛ للاستفادة من جهودهم، والبناء عليها وتطويرها، وإلاّ ستدور أمورنا كلها في حلقة مُفرغة، وتضيع جهودنا، وتبدد امكاناتنا.

- تحليل الأحداث بشكل صحيح، وفهم التاريخ فهمًا جيدًا، وتقييم الواقع بصورة حقيقية، يُمّكن المسلمين من القيام بعملية استشراف صحيح للمستقبل.
- معرفة ما يحقّق الاستمرار والاستقرار والعزة والرّخاء والفلاح في الدارين، وما يجلب الجهل والمرض وغيره؛ لأنّه عند إدراك ذلك سوف تسعى الأمة إلى الأخذ بأسباب البقاء، ببصيرة وعزيمة، وتبتعد عما يناقضه.

المطلب الثاني: تعريف الاستبدال والألفاظ ذات الصلة لغة واصطلاحًا.

أولًا : تعريف الاستبدال لغة واصطلاحًا.

تقع سنة الاستبدال ضمن منظومة سننية أعلى وهي سنة " التغيير"، فالأصل في حركة التاريخ والحياة كلها أنّ التغيير هو المبدأ الذي يحكم حركة الجميع. إلاّ أنّ هذا التغيير الدائم له قوانينه وسننه الثابتة، التي يُمْكِنها أنْ تفسر لنا أسبابه وكيفياته واتجاهاته وعوامله، كما يمكن لهذه القوانين أنْ تقوم بعملية استشراف وتنبؤ للتغيير قبل وقوعه.

وتفسير نظرية التغيير تعتمد على حال الإنسان بمفرده، وهو الذي يستطيع من خلال إدراكه لحاله وحال المجتمع الذي يعيش فيه، أنْ يستشرف ما يؤول إليه مجتمعه صعودًا وهبوطًا، قال تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ}**[1] وقال أيضًا: **{ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ}**[2]..

١() سورة الرعد، جزء من الآية، (١١) .

٢() سورة الأنفال، جزء من الآية، (٥٣) .

فهاتان الآيتان الكريمتان توضحان قواعد حركة التغيير الكبرى التي تحدث في التاريخ والحضارات والأمم. وعلى ذلك يمكن القول: بأنّ الإنسان بصفة عامة هو المحرك للتاريخ أو التغيير، وكذلك هو المؤشر الحقيقي للصعود والهبوط في الأمم والحضارات. ولبيان ذلك، فإنّ الدراسة ستقوم بتعريف الاستبدال لغة واصطلاحًا:

أ- **الاستبدال لغة:** الاستبدال، من (بدل)،" البَدِيلُ البدل، وبَدَلُ الشيء غيره... وأبْدَل الشيء بغيره، وبَدَّلَهُ الله تعالى من الخوف أمنًا، وتبديلُ الشيء أيضًا تغييره، وإنْ لم يأت ببدَلِهِ، واستبدَلَ الشيء بغيره، وتبدَّلَهُ به إذا أخذه مكانه "(١).

" وأَبْدَلَهُ مِنه بغَيرِه، وَبَدّلَهُ مِنه: اتَّخَذَه مِنه بَدَلاً. قال ثَعْلَبٌ: يُقال: أَبْدَلْتُ الخاتَمَ بالحَلْقَةِ: إذا نَحَّيْتَ هذا وجَعَلْتَ هذا مكانَه، وبَدَّلْتُ الخاتَمَ بالحَلْقَةِ: إذا أَذَبْتَه وسَوَّيْتَه حَلْقَةً، وبَدَّلْتُ الحَلْقَةَ بالخاتَمِ: إذا أَذَبْتَها وجَعلتَها خاتَمًا. قال: وحَقيقتُه أنّ التَّبديلَ تَغييرُ الصُّورَةِ إلى صُورةٍ أخرَى والجَوهَرَةُ بعَينِها. والإبدالُ: تَنْحِيَةُ الجَوهَرةِ واستئناف جَوْهَرةٍ أُخْرَى "(٢).

ب- **الاستبدال اصطلاحًا:** لم أجد – فيما اطلعت عليه – من مراجع تذكر تعريفًا لهذا المصطلح. لذلك سوف تقوم الدراسة بوضع تعريف شامل جامع له، بأنّه: **سنة إلهية تختص بالأفراد والأمم والجماعات، وتقتضي هذه السنة إبدال أو تغيير المستخلَف – فردًا كان أو جماعة – من قبل الله تعالى، وذلك في حالة التولي أو الإعراض عن منهج اللهﷻ، ويكون هذا المستخلَف قادرًا على الوفاء بواجبه الاستخلافي ولو لفترة من الزمن.**

١() الرازي، مختار الصحاح، فصل(ب د ل)،١/٥٤.

٢() محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني أبو الفيض الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، (ت١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، د.ت، فصل(ب د ل)، ص ٦٨٦٨.

من خلال التعريف اللغوي والاصطلاحي السابقين، يمكن القول: بأنَّ مادة (بدل) تدور حول عدة معاني، هي: التبديل، التغيير، التنحية.

ثانيًا: تعريف الألفاظ ذات الصلة لغة واصطلاحًا.

من الألفاظ ذات الصلة لمصطلح الاستبدال، لفظ (التولي) الذي هو الأصل في قضية التغيير والاستبدال. ولبيان هذه الصلة الوثيقة بينهما، سوف تتولى الدراسة التعريف بها، على النحو الآتي:

أ- التولي لغة: من " تولَّى عنه: أعرض، ووَلَّى هاربًا، أي: أدبر"[١]، و(وَلَّيتُ) عنه، أي: أعرضت وتركته، و(تَوَلَّى)، أي: أعرض[٢].

ب- التولي اصطلاحًا: لم أجد - فيما اطلعت عليه - من مراجع تذكر تعريفًا لهذا المصطلح، غير أنّ هذه اللفظة تشير في القرآن الكريم إلى مجموعة من المعاني والدلالات كالإعراض، والانصراف، والمنع، والإباء، والهزيمة[٣]، وإضافة إلى المعاني السابقة، تشير إلى التوجه والقصد، والطاعة المولاة، والمشاركة والضلوع[٤].

١() إسماعيل بن حماد الجوهري(ت٣٩٣هـ) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، باب(ولى)، جـ٨، ص ٤٦٩، ابن منظور، لسان العرب، باب(ولى)، ١٥/ ٤٠٥.

٢() انظر: أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري(ت٧٧٠هـ)، المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت. د.ت، كتاب(الواو)، جـ٢، ص ٦٧٣.

٣() انظر: الحسين بن محمد الدامغاني أبو عبد الله(ت٤٧٨هـ)، الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، تحقيق: محمد حسن أبو العزم الزفيتي، القاهرة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، باب(التاء)، جـ١، ص١٩٥،١٩٦.

٤() انظر: الإدارة العامة للمعجمات، وإحياء التراث، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، مادة(ب دل)، جـ١، ص١٢١-١٢٣.

المطلب الثالث: معاني الاستبدال في القرآن.

تتضمن المنظومة السننية للتغيير في القرآن الكريم مجموعة من السنن التي تندرج تحتها. والتي من بينها سُنَّة الاستبدال. ولكلٍ من هذه السنن التي تندرج تحت منظومة التغيير أسباب ودواعي – مادية ومعنوية – يُمْكن أنْ تقاس بها. ولبيان هذه الأسباب، ستقوم الدراسة بعمل تحليل للفظتي: الاستبدال، والتولي، كما جاءتا في القرآن الكريم، ومن ثم العمل على استخراج هذه الدواعي.

وقبل الشروع في بيان معاني لفظتي: الاستبدال، والتولي، ينبغي الإشارة هنا، إلى أنَّ تناولهما لن يكون مقصورًا على حدود اللفظتين أو المفردتين، وإنَّما سيقوم الباحث بجمع واستقصاء الآيات الدالة على المعاني، باللفظ، أو المعنى لكلتيهما.

هذا، وبعد القيام بعمل إطلالة للجذر اللغوي للفظة (الاستبدال) في القرآن، لوحظ أنّها قد تكررت في ثلاثة وأربعين موضعًا[١] كما هو مبين بالجدول التالي:

م	مرات الورود	باللفظ أو المعنى	مظاهر لفظة (بدل)
١	١٧	المعنى	التغيير في الأوصاف أو الذات، أو التغيير في الذات
٢	١٥	المعنى	إبدال الشيء بشيء آخر
٣	٧	المعنى	تبديل العوائد أو الحال، أو القول، أو الفعل
٤	٤	اللفظ	التغيير الكامل
جملة الورود	٤٣	(ثلاثة بالمعنى) (واحد صريح)	أربعة مظاهر

١() انظر: نفس المرجع، مادة(ب دل)، ١/١٢١– ١٢٣.

أولًا- المعنى دون اللفظ الصريح بمعنى التغيير في الأوصاف أو الذات، أو التغيير في الذات:

وردت كلمة الاستبدال بمعناها دون لفظها، في **سبعة عشر موضعًا**، بمعنى التغيير في الأوصاف أو الذات، أو التغيير في الذات، كما يأتي:

أ- التغيير في الأوصاف أو الذات:

وردت كلمة الاستبدال بمعناها دون لفظها، بمعنى **التغيير في الأوصاف أو الذات** في **ستة مواضع**، كالآتي:

- قوله تعالى: **{كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا}**[1]. يتوعد الله ﷻ الذين كذّبوا رسولهﷺ من سائر الكفار بعذاب أليم، وذلك بتبديلهم جلودًا " غير الجلود التي قد نضجت فانشوت "[2]. فهو: يجدد لهم جلودًا غير الجلود التي احترقت [3]. " والتبديل: التغيير في شيء إما بتغيير صفاته.. وإما بتغيير ذاته وإزالتها بذات أخرى، كقوله تعالى: بدلناهم جلودًا غيرها "[4].
- قوله تعالى: **{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ}**[5]. " وتبديل الأرض والسماوات يوم القيامة: إما بتغيير الأوصاف التي كانت لها، وإبطال النُظم

١() سورة النساء، جزء من الآية، (٥٦)، انظر: نفس لفظة: (بَدَّلْنَاهُمْ) - بمعنى(التغيير في الأوصاف أو الذات)- سورة سبأ، جزء من الآية، (١٦).

٢() ابن جرير الطبري، جامع البيان، ٢٩/ ٢٤١.

٣() انظر: أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر، أحكام القرآن، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، جـ٣، ص ١٧٢.

٤() ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٥٢/١٣.

٥() سورة إبراهيم ، جزء من الآية، (٤٨) .

المعروفة فيها في الحياة الدنيا، وإما بإزالتها ووجدان أرض وسماوات أخرى في العالم الأخروي. وحاصل المعنى استبدال العالم المعهود بعالم جديد "[١].

" فتُبَدَل أرض الدنيا يوم القيامة بأرض بيضاء عفراء، كقُرْصَة النقِيّ، وتبدل السماوات بأنْ تنشق وتُطوى كطي السجل للكتب، ويبقى العرش بارزًا "[٢].

- قوله تعالى: **{قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي}**[٣]. " أي: " أُغيره "[٤] حيث كانوا يريدون أنْ يأت لهم بقرآن ليس فيه سب آلهتهم. " فأمره الله أنْ يجيبهم على التبديل وطوى الجواب عن الاختراع "[٥]. لأنّ التبديل في إمكان البشر، بخلاف الاختراع، فإنّه ليس في المقدور[٦].
- قوله تعالى: **{فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ}**[٧]. أي: " فمَن غَيَّر وصية الميت، بعدما سمعها منه قبل موته، فإنّما الذنب على مَن غيَّر وبدَّل "[١].

١() ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٥٣/١٣.

٢() أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس(ت١٢٢٤هـ)، البحر المديد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، جـ٣، ص٣٨٢.

٣() سورة يونس، جزء من الآية، (١٥) .

٤() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مادة(ب د ل)، ١/ ١٢٢.

٥() بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط١، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م، جـ٦، ص ٤٧.

٦() انظر: محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، أبو القاسم، (ت٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، جـ٢، ص٣١٨،٣١٩.

٧() سورة البقرة، جزء من الآية، (١٨١) .

ب-التغيير في الذات:

وردت كلمة الاستبدال بمعناها دون لفظها، بمعنى التغيير في الذات، وذلك في **أحد عشر موضعًا**، كالآتي:

- قوله تعالى: **{وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ}**[٢]. أي: لا " مُغير "[٣]. يخبر الله ﷻ رسولهﷺ بأنّ ما كتبه في أزله وقدره من سننه في الأمم والجماعات – مسليًا بذلك قلب نبيهﷺ وأتباعه – بأنّ إهلاك الكافرين والمكذّبين سيحل بهم كما حل بمن قبلهم. وأنّ ما وعد به أولياءه من النصر والغلبة واقع أيضًا لا محالة [٤]، حيث لا " مُغَيِّرَ لِمَا وَعَدَ اللهُ بِهِ رُسُلَهَ مِنَ النَّصْرِ "[٥].
- قوله تعالى: **{قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ}**[٦]. لما لم يجد القوم شيئًا يتعلقون به، جاء سؤالهم على وجه التحكم والتعنت، غير أنّ الأمر ليس موقوفًا على تحكمهم واختياراتهم، لأنّه لو جاز أنْ يغيره أو يبدله لمجرد قولهم، لطالبوا بتغيير ما يأتي بعده، وإذا جاء الثاني طالبوا بتغييره إلى ثالث، فإذا صار الأمر كذلك؛ لأصبحت آيات الله تعالى تابعة لمقاصد هؤلاء

١() مجموعة من العلماء، عدد من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، إشراف الدكتور: عبد الله بن عبد المحسن التركي، د.ت،، ص٣٧.

٢() سورة الأنعام، جزء من الآية، (٣٤)، انظر: نفس لفظة: (مُبَدِّلَ) – بمعنى(مُغير)– الآية، (١١٥)، من نفس السورة، سورة الكهف، جزء من الآية، (٢٧).

٣() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مادة(ب د ل)، ١/ ١٢٣.

٤() انظر: مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، ص١٣١.

٥() أسعد محمود حومد، أيسر التفاسير، ط٤، ١٤١٩هـ/٢٠٠٩م، ص٣٢٤.

٦() سورة يونس، جزء من الآية، (١٥) .

السفهاء. " والفرق بين الإتيان بغيره وبين تبديله، أنّ الإتيان بغيره لا يقتضي رفعه، بل يجوز بقاؤه معه، وتبديله لا يكون إلاّ برفعه ووضع آخر مكانه "[١].

- قوله تعالى: **{لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}**[٢]. أي " لا تغيير "[٣]. أراد الله ﷻ بقوله السابق أنْ يبشر عباده المؤمنين، بأنّ لهم البُشْرَى فِي الدُّنْيا؛ بِإِلْهَامِهِم الحَقَّ، والتمكين فِي الأَرْضِ، مَا نَصَرُوا دِينَهُ، وأَقَامُوا شرْيعَته على أرضه. " وَهَذَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ لاَ يُبَدَّلُ .. وَلاَ يُغَيَّرُ وَلاَ يُخْلَفُ، بَلْ مُقَرَّرٌ ثَابِتٌ كَائِنٌ لاَ مَحَالَةَ "[٤].

ثانيًا: المعنى دون اللفظ الصريح بمعنى الإبدال:

وردت كلمة الاستبدال بمعناها دون لفظها، **في خمسة عشر موضعًا**، والتي جاءت بمعنى إبدال الشيء بشيء آخر.

- قوله تعالى: **{ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا}**[٥]. وهو " جعل الحُسْنَ بدلًا بعد ظلمه وسوئه "[٦]. أي: " أبدلناهم بالجدب خصبًا "[١] يخبر

١() الجصاص، أحكام القرآن، ٤/٣٧٤.

٢() سورة يونس، جزء من الآية، (٦٤)، انظر: نفس لفظة: (تَبْدِيل) – بمعنى(تغيير)– سورة الروم، الآية، (٣٠)، سورة الأحزاب، الآية، (٢٣)، سورة الأحزاب، الآية، (٦٢)، سورة فاطر، الآية، (٤٣)، سورة الفتح، الآية، (٢٣)، سورة الإنسان، الآية، (٢٨).

٣() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مادة(ب د ل)، ١/ ١٢٣.

٤() أسعد محمود حومد، أيسر التفاسير، ص٥١٤.

٥() سورة الأعراف، جزء من الآية، (٩٥)، انظر: نفس لفظة: (بَدَّلْ) – بمعنى: (الإبدال)– سورة الإنسان، الآية، (٢٨)، سورة النمل، الآية، (١١)، الفرقان، الآية، (٧٠).

٦() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مادة(ب د ل)، ١/ ١٢١.

تعالى عمّا اختبر به الأمم الماضية – حين أرسل إليهم الرسل والأنبياء– بالبأساء والضراء, بغية التضرع والرجوع إليه ﷻ في كشف ما حلّ بهم, فما قاموا بعمل شيء ممّا أراده منهم, فبدل الله حالهم إلى الرخاء اختبارًا منه, أي: " حولنا الحالة من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى ليشكروا على ذلك فما فعلوا "[٢].

- قوله تعالى: **{وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}**[٣]. أي: " جعلوا الكفر بدل شكر النعمة "[٤] أو" بدلوا نعمة الله كفرًا "[٥]. والآية الكريمة تتناول كل من بدل نعمة الله تعالى، وهي آياته الدالة على صدق رسله. كما تتناول جميع ما أسبغه الله ﷻ على عباده من مال وصحة، وغير ذلك من نعمه الظاهرة والباطنة، بعد وصولها إليهم وظهورها عليهم، بأنْ كفروا بها، وجحدوا فضلها، مع أنّها تدعو إلى الإيمان، وتستلزم شكر مسديها. فإنّ مَنْ يبدل ذلك التبديل فإنّ عاقبته التغيير والإبدال.

١() محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله(ت٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، جـ٧، ص ٢٥٢.

٢() إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء (ت٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، جـ٣، ص ٤٤٩، ٤٥٠.

٣() سورة البقرة، جزء من الآية، (٢١١)، انظر: نفس لفظة: (بَدَّلْ) – بمعنى: (الإبدال)– سورة غافر، الآية، (٢٦).

٤() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مادة(ب د ل)، ١/ ١٢١.

٥() لجنة من العلماء، التفسير الوسيط، ٣٣١/١.

- قوله تعالى: **{وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ}**[١]. أي: " لا تضعوا الخبيث مكان الطيب "[٢]. فقد " كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِعَدَمِ الدِّينِ لَا يَتَحَرَّجُونَ عَنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى، فَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى وَيُبَدِّلُونَهَا بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَقُولُونَ: اسْمٌ بِاسْمٍ وَرَأْسٌ بِرَأْسٍ، مِثْلُ أَنْ يَكُونَ لِلْيَتِيمِ مِائَةُ شَاةٍ جِيَادٍ فَيُبَدِّلُونَهَا بِمِائَةِ شَاةٍ هَزْلَى لَهُمْ، وَيَقُولُونَ: مِائَةٌ بِمِائَةٍ؛ فَنَهَاهُمْ اللَّهُ عَنْهَا "[٣].
- قوله تعالى: **{وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ}**[٤]. " يعني: وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكمًا آخر"[٥].
- قوله تعالى: **{وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}**[٦]. " أي: عوضًا "[٧]. " فبئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان، الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن "[٨].
- قوله تعالى: **{فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا}**[١]. أي: " يجعله عوضًا عنه "[٢]. فأراد الله " أنْ يُبْدِل أبويه بمن هو خير منه، صلاحًا ودينًا وبرًا بهما"[٣].

١() سورة النساء، جزء من الآية، (٢) .

٢() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مادة(ب د ل)، ١/ ١٢٢.

٣() ابن العربي، أحكام القرآن، ٤٠٣/١.

٤() سورة النحل، جزء من الآية، (١٠١) .

٥() أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت٤٢٧هـ)، الكشف والبيان، تحقيق: الإمام أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م، جـ٦، ص ٤٣.

٦() سورة الكهف، جزء من الآية، (٥٠) .

٧() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مادة(ب د ل)، ١/ ١٢٣.

٨() عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، جـ١، ص ٤٧٩.

- قوله تعالى: **{وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي..}**[٤]. وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالنصر والتمكين في الأرض، بجعلهم خلفاء فيها، مثلما صنع مع سابقيهم من المؤمنين، وجعل دينهم الذي ارتضاه لهم الإسلام دينًا عزيزًا. " وأنْ يبدل حالهم من الخوف إلى الأمن، إذا عبدوا الله وحده، واستقاموا على طاعته"[٥].
- قوله تعالى: **{عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}**[٦]. " أي: نبدل من الذين ماتوا أمثالاً لهم نوجدهم "[٧].

ثالثًا- المعنى دون اللفظ الصريح بمعنى تبديل العوائد، أو الحال، أو القول والفعل:

وردت كلمة الاستبدال بمعناها دون لفظها، **في سبعة مواضع**، بمعنى تبديل العوائد، أو الحال، أو القول، أو الفعل بآخر، كما يأتي:

أ- تبديل العوائد: قوله تعالى: **{وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}**[١]. أي: يبدل الكفر بالإيمان، وذلك بترك النظر في الآيات البينات واقتراح

١() سورة الكهف، جزء من الآية، (٨١)، انظر: نفس لفظة: (يُبْدِلَه) - بمعنى: (الإبدال)- سورة التحريم، الآية، (٥)، سورة القلم، الآية، (٣٢).

٢() انظر: الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مادة(ب د ل)، ١/ ١٢١.

٣() مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، ص٣٠٢.

٤() سورة النور، جزء من الآية، (٥٥) .

٥() مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، ص٣٥٧.

٦() سورة الواقعة، الآية، (٦١)، انظر: نفس لفظة: (نُبَدِّل) - بمعنى: (الإبدال)- سورة المعارج، الآية، (٤١).

٧() محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، جـ٧، ص٥٣٠.

غيرها. وقد جاءت الآية في سياق " الإنكار التحذيري "[٢]. من الوقوع في الأسئلة التي قد تفضي بسائلها إلى الكفر. كقول بني اسرائيل لموسىﷺ من قبيل العجرفة، قال تعالى: **{لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}**[٣]. فكان التحذير خشية تسلسل الأسئلة المفضية إلى مثل ذلك.

قال الإمام ابن عاشور:" ويُحْتمل أنّ المراد بالكفر أحوال أهل الكفر. أي: لا تتبدلوا بآدابكم تقلد عوائد أهل الكفر في سؤالهم "[٤].

ولعل أمر النهي عن المشابهة لأهل الكفر يرجع لأحد أمرين:

الأول: الآثار السيئة التي ترجع على الفرد المسلم عقيدة وسلوكًا؛ وذلك أنّ المشابهة الظاهرية لا بد أنْ تُورث بين المتشبه والمتشبه به شعورًا واضحًا بالتقارب، والتعاطف، والتوادّ، وهذا ما يشهد به الواقع، فضلًا عن بيان الشرع، وموافقة العقل.

يقول الإمام ابن تيمية: " إنّ المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسبًا وتشاكلًا بين المتشابهين، يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال، وهذا أمر محسوس، فإنّ

١() سورة البقرة، جزء من الآية، (١٠٨)، انظر: نفس لفظة: (تَبَدَّل) – بمعنى: (التبديل)– سورة الأحزاب، الآية، (٥٢).

٢() ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٦٦٦/١.

٣() سورة البقرة، جزء من الآية، (٥٥) .

٤() ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٦٦٧/١.

اللابس لثياب أهل العلم– مثلًا– يجد في نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند المقاتلة– مثلًا– يجد في نفسه نوع تخلق بأخلاقهم، ويصير طبعه متقاضيًا لذلك "[1].

الثاني: لا يقتصر التشابه بين المسلم والكافر على المودة الظاهرة بينهما، بل قد يصل إلى الأمور الاعتقادية والفكرية الباطنة، فإنّ المسلم الذي يقلد الكفار في الهدي الظاهر، يقوده ذلك على وجه المتابعة والمسايرة والتدرج الخفي إلى التأثر باعتقاداتهم الباطلة. وهذا الأمر ندركه اليوم ممن يعشقون الحياة الغربية، فأكثرهم يحمل أفكارًا واعتقادات غريبة عن الإسلام، بل قد تكون الأفكار التي يحملونها تنافي في ذاتها العقيدة الإسلامية الصحيحة.

ب– تبديل الحال: قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا}**[2]. والمعنى: " ألم تنظر أيها المخاطب – والمراد العموم– إلى حال المكذبين من كفار قريش، الذين استبدلوا الكفر بالله بدلًا عن شكره على نعمه .. وقد أنزلوا أتباعهم دار الهلاك.. وهي جهنم "[3].

جـ– تبديل القول والفعل: قوله تعالى: **{فَبَدَّلَ الذينَ ظَلَموا قَولًا غَيْرَ الذي قِيلَ لَهُم}**[4]. فقد بدَّل الضالون من بني إسرائيل قول الله، وحرَّفوا القول والفعل جميعًا، حيث دخلوا

١() أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية(ت٧٢٨هـ)، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، ط٧، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، جـ١، ص٨٠،٨١.

٢() سورة إبراهيم، جزء من الآية، (٢٨) .

٣() مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، ص٢٥٩.

٤() سورة البقرة، جزء من الآية، (٥٩)، انظر: نفس لفظة: (بَدَّلَ) – بمعنى: (التغير أو التحريف)– سورة الأعراف، الآية، (١٦٢)، سورة الأحزاب، الآية، (٢٣)، سورة الفتح، الآية، (١٥) .

على أستاهم، وقد قِيلَ لَهُمْ: قُولُوا حِطَّةٌ، أَيْ: اللَّهُمَّ اُحْطُطْ عَنَّا ذُنُوبَنَا. فَقَالُوا: سقماثاه أزه هَذَبًا، مَعْنَاهُ حَبَّةٌ مَقْلُوَّةٌ فِي شَعْرَةٍ، فَبَدَّلُوهُ بِمَا لَا يُعْطِي مَعْنَاهُ [١]. أي: " غيروه أو حرفوه"[٢]. وذلك استهزاء واسْتِخْفَافًا مِنْهُمْ بِدِينِه تعالى، وَمُعَانَدَةً لنَّبِيّه ﷺ فأنزل الله عليهم عذابًا من السماء؛ بسبب تمردهم وخروجهم عن طاعته.

رابعًا: اللفظ الصريح بمعنى التغيير الكامل:

وردت كلمة الاستبدال بلفظها الصريح، **في أربعة مواضع**، بمعنى التغيير الكامل.

- قوله تعالى: **{أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ}**[٣]. والمعنى: " تأخذونه بدله"[٤].
- قوله تعالى: **{وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا}**[٥]. ومقصد لفظة " الاستبدال" في الآية هنا: التبديل الذي قد يقال للتغيير. أي: " وإنْ أردتم استبدال زوج، يعني: تغيير زوج مكان زوج "[٦]. ولعل الزوجة المراد تغييرها هي التي أصبح استمرار الحياة الزوجية معها أمرًا مستحيلًا، ويخاف الزوج على نفسه أنْ تنفلت إلى الشيء الحرام، فله أنْ يغير شريطة أنْ يعطي للزوجة المُسْتَبْدلة بأخرى مهرها كاملًا، غير منقوص.

١() انظر: محمد بن عبد الله أبو بكر ابن العربي(ت٥٤٣هـ)، أحكام القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن، التركي، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت، جـ١، ص٣٤،٣٥.

٢() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مادة(ب د ل)، ١/ ١٢١.

٣() سورة البقرة، جزء من الآية، (٦١) .

٤() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مادة(ب د ل)، ١/ ١٢٢.

٥() سورة النساء، جزء من الآية، (٢٠) .

٦() نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي، أبو الليث (ت٣٧٥هـ)، بحر العلوم، تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، د.ت، جـ١، ص ٣١٦.

- قوله تعالى: **{إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا}**[1]. والظاهر أنّ لفظة: " يَسْتَبْدِلْ " في الآية قد وُضعت في موضع جواب الشرط، لفعل الشرط: {إِلَّا تَنفِرُوا}. والاستبدال هنا جاء بمعنى: التغيير الكامل للأقوام المُعْرِضين أو المنصرِفين عن القيام بمهام ذلك " النفير" وهو: البذل والعطاء الإنساني لمعاني عدة منها: القتال، وهو ما صرحت به الآية الكريمة. ومَنْ هو في معانيه كالمصارعة، والمنافسة، والمدافعة الحضارية مع الأمم الأخرى.

والمعنى: " ويستبدل بكم بعد إهلاككم قَوْمًا غَيْرَكُمْ. وصفهم بالمغايرة لهم لتأكيد الوعيد والتشديد في التهديد بالدلالة على المغايرة الوصفية والذاتية المستلزمة للاستئصال، أي: قومًا مطيعين، مؤثرين للآخرة على الدنيا، ليسوا من أولادكم ولا أرحامكم "[2].

- قوله تعالى: **{هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم}**[3]. ولفظة " يَسْتَبْدِلْ " في الآية، قد وقعت أيضًا في موضع جواب الشرط، لفعل الشرط: {وَإِن تَتَوَلَّوْا}. " هذه الشرطيةُ عطفٌ على الشرطية قبلها، و{ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ} عطفٌ على {يَسْتَبْدِلْ} "[4].

١() سورة التوبة، جزء من الآية، (٣٩) .

٢() الألوسي، روح المعاني، ٩٦/١٠.

٣() سورة محمد، جزء من الآية، (٣٨) .

٤() أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي(ت٧٥٦هـ)، الدر المصون في علم الكتاب المكنون، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، جـ٩، ص٧٠٨.

ولعل مقصود التولي عن الانفاق في الآية هو منع العطاء الإنساني، في مجال تداول حركة رأس المال في المجتمع، تحقيقًا لضابط حركة المجتمع نحو الاتزان والاستقرار المادي، فما من قوم منعوا هذا العطاء إلا اسْتَبْدَلَهم الله بغيرهم.

والمعنى: " يهلككم، ثم يجيء بقوم آخرين غيركم، بدلًا منكم يصدّقون به, ويعملون بشرائعه، ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم. يقول: ثم لا يبخلوا بما أُمروا به من النفقة في سبيل الله, ولا يضيعون شيئًا من حدود دينهم "[١].

والملاحظ من قول الإمام الطبري السابق، أنّه قام بتحديد دواعي الاستبدال في عدة أمور، هي:

- التولي عن نصرة الدين.
- الانصراف عن التصديق بآيات الله تعالى.
- منع النفقة في سبيل الله تعالى.
- الإعراض عن تطبيق الحدود المشروعة.

ويقول الإمام ابن عاشور: " أي: يزيلكم، ويخلفكم بقوم آخرين، لا يتولون عن رسولهم "[٢].

ولعل ما يُؤكد ما ذهب إليه الإمام الطبري، والإمام ابن عاشور، حديث الْعَلَاءِ بنِ عَبْدِ الرْحمَن، عَن أَبيهِ، عَن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: " تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا هَذِهِ الْآيَةَ: **{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}**. قَالُوا: وَمَنْ يُسْتَبْدَلُ بِنَا؟ قَالَ:

١() ابن جرير، جامع البيان، ٢١/ ١٠٢.

٢() محمد الطاهر بن عاشور التونسي(ت١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م، جـ١٢، ص ١٠٢.

فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى مَنْكِبِ سَلْمَانَ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا وَقَوْمُهُ، هَذَا وَقَوْمُهُ "[1]. وفي رواية، عن أبي هريرةﷺ أيضًا: " والّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كانَ الإيمَانُ مَنُوطًا بالثّرَيّا، لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسَ "[2].

مما سبق يمكن القول بأنّ: لفظة الاستبدال في الآية السابقة، تعني التغيير الكامل للأقوام المانعين لذلك العطاء، تحقيقًا للحفاظ على ضابط الاتزان المالي في المجتمع.

كما يمكن ملاحظة ما في الآية السابقة[3] من تنبيه وتخويف لكل من كانت له ولاية، أو إمارة، أو رئاسة، أو مسؤولية فلا يقوم بالعدل والقسط فيمن ولاه الله تعالى أمرهم، أو كان عالِمًا لا يعمل بعلمه – بلاغًا، وبيانًا، أمرًا، ونهيًا – فإنّ الله تعالى يستبدله بإهلاكه ويأتي بغيره.

من خلال ما سبق في بيان معاني لفظة الاستبدال في القرآن يمكن ملاحظة ما يأتي:

١. أنّ مجموع **مظهر التغيير في الأوصاف أو الذات** بأبعاده النزوعية قد جاء في المرتبة الأولى، بالنسبة لجذر لفظة الاستبدال، وذلك من بين الأربعة مظاهر الأخرى،

١() أخرجه الإمام الترمذي في سننه، باب(ومن سورة محمد ﷺ)، برقم، ٣٢٦٠، ٣٨٣/٥. قال الترمذي: هذا حديث غريب في إسناده مقال.

٢() أخرجه الإمام الترمذي في سننه، باب(ومن سورة محمد ﷺ)، برقم، ٣٢٦١، ٣٨٤/٥. قال أبو عيسى: " وعَبْدُ الله بنُ جَعْفَرِ بنِ نَجِيحٍ، هُوَ وَالدُ عَلِيّ بنِ المَدِينيّ. وقد رَوَى عَلِيّ بنُ حُجْرٍ، عَن عَبْدِ الله بنِ جَعْفَرٍ الكَثِيرَ. وَحَدّثَنَا عَلِيّ بِهذَا الحَدِيثِ، عَن إسْمَاعِيل بنِ جَعْفَرٍ، عن عبد الله بن جعفر. وحدثنا بشر بن معاذ، حدثنا عبد الله بن جعفر، عن العلاء نحوه، إلاّ أنّه قال: " مُعلقٌ بالثريا ".

٣() سورة محمد، جزء من الآية، (٣٨) .

ولعل ذلك يؤكد على أنّ مظهر **التغيير في الأوصاف أو الذات** – الذي هو بمعنى التزيين والإغراء بكافة صوره – يُعد البداية الحقيقية لأمر الاستبدال للأفراد والأمم، علمًا بأنّ ما بعده من المظاهر يأتي في سياق التبعية التلازمية، هذا إنْ تمت الاستجابة من قبل المُزّين به.

ويشهد لذلك قوله تعالى: **{وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ}**[١]. أي: اسْتَخِفّهُمْ أو اسْتَجْهِلهمْ[٢]. إذ لو لم يكن هناك استخفاف واستجهال، لَمَا وُجِد التزيين والإغراء. وهذا ما يُؤكد على أنّ الأصل في التغيير هو الاستخفاف والاستجهال.

فها هو إبليس يغوي آدمعليه السلام ويزين له الأكل من الشجرة، بقول الله على لسانه: **{هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ}**[٣]. على اعتبار أنّه سيخلد بمجرد الأكل منها. ولعل ذلك يُصّدق قوله تعالى: **{وَلَأُضِلَّنَّهُمْ}**[٤]. أي: " ضلالًا في العلم، وضلالًا في العمل "[٥].

ويأتي في المرتبة الثانية **بعد التغيير في الأوصاف أو الذات مظهر إبدال الشيء الحقيقي، بالشيء الزائف**، ويظهر ذلك في قول الله على لسان إبليس: **{وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى}** [٦]. وهنا يُبَدِّل إبليس الحقائق. فيصور لآدم عليه السلام المعصية على أنّه الملك الذي لا يبلى. ويُصّدق ذلك قوله تعالى: **{وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ}**[٧] " أي: مع الإضلال، لأمنينهم أنْ ينالوا ما ناله المهتدون. وهذا هو الغرور بعينه "[٨].

١() سورة الإسراء، جزء من الآية، (٦٤) .
٢() ابن العربي، أحكام القرآن، ص١٢١٧.
٣() سورة طه، الآية، (١٢٠).
٤() سورة النساء، جزء من الآية، (١١٩).
٥() السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص٢٠٣.
٦() سورة طه، جزء من الآية، (١٢٠).
٧() سورة النساء، جزء من الآية، (١١٩).
٨() السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص٢٠٣.

ثم يجيء تباعًا لذلك مظهر **تبديل العوائد أو الحال، أو القول، أو الفعل.** فبعد الإنعام بالجنة وسكون الحال ورغد العيش، مع اتباع الأمر والنهي، قال الله: **{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ}**(١). تَتَبَدل العوائد والأحوال والأفعال، بعد الإعراض عن الأمر، وطاعة غير أُولي الأمر، والمشاركة في النهي، قال الله: **{فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}**(٢). إذ لم يلبس آدمﷺ أنْ كان في الجنة ساكنًا، وفي رحابها متمتعًا، يأكل منها رغدًا حيث شاء.

وما أنْ ينتهي من مظهر التبديل حتى يُعْلن عن مظهر **التغيير الكامل،** بعدما همس إبليس في أذنيه بكلماته. فأقبل آدمﷺ بوجهه منيبًا إلى ربه راجيًا عفوه، قائلًا مقولة الطائع المُوالي، **{قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}**(٣). فيجيبه مولاه بأنْ قد تم الاستبدال والتغيير، أنْ: **{اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}**(٤).

وبهذا الأمر الإلهي ينزل آدمﷺ إلى مظهر التغيير، من الجنة والنعيم، إلى الشقاء، المستديم بسبب اصغائه لإغراء وتزيين عدوه: **{فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى}**(٥).

٢. للسنن الإلهية قانون ثابت مطرد، ومنها سنة الاستبدال، التي ضمّن الله تعالى القرآنَ الكريم بما يدل عليها من معاني على نحو من التصريح أو التلميح، وذلك من

١() سورة البقرة، جزء من الآية، (٣٥).
٢() سورة طه، الآية، (١٢١) .
٣() سورة الأعراف، الآية، (٢٣).
٤() سورة الأعراف، جزء من الآية، (٢٤) .
٥() سورة طه، الآية، (١١٧) .

خلال عرض قصص الأنبياء السابقين. وعليه، فمفاد هذه السنة: أنّه متى تحققت شروط التولي، من انصراف وإعراض عن نصرة دين الله ﷻ إلاّ جاءت آثاره ونتائجه، وهو القانون الإلهي الموضوع من قبله تعالى، فهو من أقامه بمشيئته، وهيَّأ له مقتضياته بإرادته.

٣. **لا يتحقق الاستبدال رغمًا عن إرادة الأمم**؛ وإنّما عن محض اختيار منها وإرادة، فأيما أمة من الأمم انحرفت عن جادة الطريق، بعد أنْ كانوا على الصراط القويم من الالتزام بالأوامر واجتناب النواهي، ثم قامت بتبديل دينها إلاّ وكان مصيرها التبديل والتغيير بمن هو خير منها، ولعل من أشكال ومظاهر التبديل في القرآن، ما يأتي:

- **الإهلاك:** جاء استبدال الأمم السابقة عن طريق إهلاكها، كما في أقوام هود، وصالح عليهما السلام، وغيرهم، وكان ذلك بهلاك مباشر من الله، قال تعالى: **{فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ}**(١). " أي: وأهلكنا كذلك عادًا قوم هود، وثمود قوم صالح "(٢).
- **نقل الغلبة والعزة من أمة إلى أمة،** قال تعالى: **{وَنُرِيدُ أَنْ نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ}**(٣). قال ابن كثير: " وقد فعل تعالى ذلك بهم، كما قال: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} "(٤). وهذه سنة التمكين، الوجه المقابل لسنة الاستبدال، فما كان هناك تمكين لقوم إلاّ

١() سورة العنكبوت، جزء من الآية، (٤٠) .
٢() أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، ١٣٣/٤.
٣() سورة القصص، الآية، (٥،٦) .
٤() ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٢٢١.

ويوازيه استبدال لقوم آخرين، قد استحقوا الاستئصال بما فعلوه من الإعراض عن الإيمان.

- **الخيرية**، قال تعالى: **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}**[1]. تسلمت أمة الإسلام هذه الراية باعتبارها الأمة الخاتمة، والشاهدة على الأمم السابقة.

" وإنَّما نالت الأمة هذه الفضيلة لمتابعة النبي ﷺ وفضيلة التابع توجب فضيلة المتبوع "[2]. وتتجلى خيرية أمة الإسلام في الإيمان بالله تعالى، وتبليغ رسالة التوحيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المطلب الرابع: معاني الألفاظ ذات الصلة في القرآن.

من الألفاظ ذات الصلة بالنسبة لسنة الاستبدال، والركن الأساسي لها، لفظ(التَوَلّي). قال تعالى: **{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا}**[3]. وهو من: التَوَلّي عن أمر الله تعالى. وقد وُجد أنّ الحسين بن محمد الدامغاني يشير – في الوجوه والنظائر– إلى تفسير " تولّى" بأربعة أوجه، هي:

١() سورة آل عمران، جزء من الآية، (١١٠) .

٢() عمر بن علي بن عادل الدمشقي، أبو حفص(ت٨٨٠ هـ)، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، جـ٤، ص ٢٩٩.

٣() سورة محمد ، جزء من الآية، (٣٨) .

- **الانصراف**، قال تعالى: **{ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ}**[١]، أي: انصرف، وكذلك قوله: **{ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ}**[٢] أي: انصرف، وكذلك قوله: **{قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا}**[٣]. أي: انصرفوا.
- **الإباء**، قال تعالى: **{وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا}**[٤] **يعني: أبوا. وقوله تعالى: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا}**[٥]. أي: فإنْ أبوا.
- **الإعراض**، قال تعالى: **{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ}**[٦] يعني: فإن أعرضتم عن طاعتهما، وكذلك قوله: **{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ}**[٧] أي: أعرض عنهم. وكذلك قوله تعالى: **{فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ}**[٨]، يعني: أعرضتم عن الإيمان.
- **الهزيمة**، قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ}**[٩] يعني: فلا تنهزموا . وقوله تعالى: **{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ}**[١٠]. أي: منهزمين[١].

١() سورة القصص، جزء من الآية، (٢٤) .
٢() سورة النمل، جزء من الآية، (٢٨) .
٣() سورة التوبة، جزء من الآية، (٩٢) .
٤() سورة المائدة، جزء من الآية، (٤٩) .
٥() سورة النساء، جزء من الآية، (٨٩) .
٦() سورة التغابن، جزء من الآية، (١٢) .
٧() سورة الذاريات، الآية، (٥٤) .
٨() سورة يونس ، جزء من الآية، (٧٢) .
٩() سورة الأنفال، الآية، (١٥) .
١٠() سورة التوبة، جزء من الآية، (٢٥) .

ويشير الراغب الأصفهاني – في المفردات– إلى معاني التَوَلّي في القرآن، بما يأتي:

- **الإعراض**، وقولهم: تولى إذا عدى بعن لفظًا، أو تقديرًا، اقتضى معنى الإعراض، والتولي قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار.
- **الهزيمة**، يقال: ولاه دبره إذا انهزم. قال تعالى: **{وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ}**[٢]،[٣].

ولكي يستبين للدراسة المراد من لفظ(التَوَلّي) لا بد من عمل إطلالة لجذرها اللغوي. وقد لوحظ من خلال البحث وإلقاء الضوء على الجذر اللغوي لها، أنّها قد تكررت (مائة وتسع)[٤] مرة، كما هو مبين بالجدول التالي:

م	مرات الورود	باللفظ أو المعنى	مظاهر لفظة (التولي)
١	٧٣	المعنى	الإعراض
٢	١٦	المعنى	الرجوع الانصراف
٣	١١	المعنى	التوجه والقصد
٤	٧	اللفظ	الطاعة والموالاة
٥	٢	المعنى	المشاركة والضلوع في الأمر
جملة الورود	١٠٩	(أربعة بالمعنى) (واحد صريح)	خمسة مظاهر

١() انظر: الدامغاني، الوجوه والنظائر، ١/١٩٥،١٩٦.

٢() سورة آل عمران، جزء من الآية، (١١١) .

٣() انظر: الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم(ت٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، باب(الواو)، ص٥٣٤.

٤() انظر: الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١/١٢٠٣– ١٢٠٧.

أولًا: الإعراض وقد ورد ذلك المظهر في (ثلاثة وسبعين) موضعًا موزعًا حسب نزوعات أبعاده، كالآتي:

- قوله تعالى: **{ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}**(١). " أي: ثم أعرضتم عن الميثاق والوفاء به "(٢).
- قوله تعالى: **{وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}**(٣). أي: " تُدبروا وتُعرضوا "(٤).
- قوله تعالى: **{وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}**(٥). أي: وإنْ تولّوا وأعرضوا عن هداية الإسلام(١).

١() سورة البقرة، الآيتان، (٦٣،٦٤)، انظر: نفس لفظة: (تَوَلَّيْتُمْ) – بمعنى: (أعرضتم)– من نفس السورة، الآية، (٨٣)، سورة المائدة، الآية، (٩٢)، سورة التوبة، الآية، (٣)، سورة يونس، الآية، (٧٢)، سورة محمد، الآية، (٢٢)، سورة الفتح، الآية، (١٦)، سورة التغابن، الآية، (١٢). وإذا كانت لفظة (توليتم) في سورة محمد، الآية، (٢٢)، تشير إلى معنى الإعراض، فإنّ من بين معانيها، كما جاء في معجم ألفاظ القرآن، توليتم، أي: " صرتم ولاة ". الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١/١٢٠٥.

٢() محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي فخر الدين(ت٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، جـ٣، ص ٥٣٧.

٣() سورة هود، الآية، (٥٢)، انظر: نفس لفظة: (تَتَوَلَّوْا) – بمعنى: (تُدبروا وتُعرضوا)– سورة محمد، الآية، (٣٨)، سورة الفتح، الآية، (١٦). غير أنّ لفظة(تَتَوَلَّوْا)، في سورة الممتحنة، الآية، (١٣)، في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، معناها: " لا ترتبطوا بهم ولا تحالفوهم ". الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١/١٢٠٦.

٤() انظر: الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١/١٢٠٥.

٥() سورة البقرة، الآية، (١٣٧)، انظر: نفس لفظة: (تَوَلَّوْا) – بمعنى: (تولوا وأعرضوا)– من نفس السورة، الآية، (٢٤٦) من نفس السورة، سورة آل عمران، الآيات، (٢٠، ٣٢، ٦٣، ٦٤، ١٥٥)، سورة النساء، الآية، (٨٩)، سورة المائدة، الآية، (٤٩)، سورة الأنفال، الآيتان، (٢٣،٤٠)، سورة التوبة، الآيات، (٧٦،٩٢،١٢٩)، سورة النحل، الآية، (٨٢)، سورة الأنبياء،

- قوله تعالى: **{وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ}**[٢]. " أي: لا تُعرضوا عن طاعته إذا أمركم أو نهاكم كأنكم لا تسمعون "[٣].
- قوله تعالى: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ}**[٤]. أي : " يعرض عن الإيمان ويتول الكُفَّار "[٥].
- قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ}**[٦]. " أي يعرض عن طاعتهما طائفة منهم "[٧].

الآية، (١٠٩)، سورة الصافات، الآية، (٩٠)، سورة الدخان، الآية، (١٤)، سورة التغابن، الآية، (٦). غير أنّ لفظة(تَوَلَّوْا)، في سورة المجادلة، الآية، (١٤)، في قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، معناها: " أحبوا ونصروا ". الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١٢٠٥/١.

١() انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، ٢٠٥/٣.

٢() سورة الأنفال، جزء من الآية، (٢٠)، انظر: نفس لفظة: (تَوَلَّوْا) – بمعنى: (تُعرضوا)– سورة هود، الآيتان، (٥٧،٣)، سورة النور، الآية، (٥٤).

٣() أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، ٢٩٥/٢. وتولَّوْا: أصلها تتولَّوْا، فحذفت إحدى التاءين، أي تعرضوا. انظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١٢٠٦/١.

٤() سورة الممتحنة، جزء من الآية، (٦)، انظر: نفس لفظة: (يَتَوَلَّ) – بمعنى: (يُعرض)– سورة الفتح، الآية، (١٧)، سورة الحديد، الآية، (٢٤). غير أنّ لفظة(يَتَولّ)، في سورة المائدة، الآية، (٥٦)، في قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}. فإنّ معناها: " يُحب وينصر". الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١٢٠٦/١.

٥() ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ١٩/١٩، انظر: الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١٢٠٦/١

٦() سورة آل عمران، الآية، (٢٣)، انظر: نفس لفظة: (يَتَوَلَّى) – بمعنى: (يُعرض)– سورة النور، الآية، (٤٧).

٧() السمرقندي، بحر العلوم، ٢/ ٥١٩.

- قوله تعالى: **{وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ}**[١]. أي: " يعرضوا وينصرفوا "[٢]. والتولّي: الإعراض عن الإنابة والرجوع بالتوبة إلى الله[٣].
- قوله تعالى: **{فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ}**[٤]. أي: " أعرض "[٥].
- قوله تعالى: **{وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا}**[٦]. أي: " فأعْرِض عمن أعرض عن ذكرنا المفيد للعلم الحق؛ وهو القرآن العظيم "[٧].
- قوله تعالى: **{وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}**[١]. أي: " إعراضُهم عن حُكْمِه بعد أنْ حكَّموه "[٢].

١() سورة التوبة، جزء من الآية، (٥٠)، انظر: نفس لفظة: (يَتَوَلَّوْا) – بمعنى: (يُعرضوا)– من نفس السورة، الآية، (٧٤).

٢() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١٢٠٦/١.

٣() انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٧١/١٠.

٤() سورة النمل، الآية، (٢٨)، انظر: نفس لفظة: (تَوَلَّ) – بمعنى: (أعرض)– سورة الصافات، الآية، (١٧٤،١٧٨)، سورة الذاريات ، الآية، (٥٤)، سورة القمر، الآية، (٦).

٥() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١٢٠٦/١.

٦() سورة البقرة، جزء من الآية، (٢٠٥)، انظر: نفس لفظة: (تَوَلَّى) – بمعنى: (أعرض)– سورة آل عمران، الآية، (٨٢)، سورة النساء، الآية، (٨٠)، سورة الأعراف، الآية، (٧٩،٩٣)،سورة يوسف، الآية، (٨٤)، سورة طه، الآية، (٤٨،٦٠)، سورة الذاريات، الآية، (٣٩)، سورة النجم، الآية، (٢٩،٣٣)، سورة المعارج، الآية، (١٧)، سورة القيامة، الآية، (٣٢)، سورة عبس، الآية، (١)، سورة الغاشية، الآية، (٢٣)، سورة الليل، الآية، (١٦)، سورة العلق، الآية، (١٣). غير أنّ لفظة(تَوَلَّى) في سورة القصص، الآية، (٢٤)، معناها: " قصد واتجه ". وفي سورة النساء، الآية، (١١٥)، معناها: " أحب ومال ". وفي سورة النور، الآية، (١١)، معناها: " قام به ". انظر: الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١٢٠٥/١.

٧() الألوسي، روح المعاني، ٦٠/٢٧.

ثانيًا: الانصراف والرجوع، وقد جاء ذلك موزعًا حسب الأبعاد النزوعية لمظهري الانصراف والرجوع، في **(ستة عشر)** مواضعًا، كالآتي:

- قوله تعالى: **{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا}**[٣]. أي: " صرفهم عنها ". والمراد: " ما صرفهم عن استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة بمكة "[٤].
- قوله تعالى: **{وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ}**[٥]. أي: " ذهب وانصرف "[٦].
- قوله تعالى: **{ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا}**[٧]. أي: " نكصوا ورجعوا "[٨].
- قوله تعالى: **{لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا}**[١]. أي: "رجعت وأدبرت "[٢].

١() سورة المائدة، جزء من الآية، (٤٣)، انظر: لفظة(يَتَوَلَّوْنَ) في نفس السورة، الآية، (٨٠)، في قوله تعالى: {تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} فإنّ معناها: " يحبون وينصرون ". الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١٢٠٦/١.

٢() ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ٣٤٤/٧.

٣() سورة البقرة، جزء من الآية، (١٤٢) .

٤() أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، ١/ ١٢٤.

٥() سورة النمل، جزء من الآية، (١٠)، انظر: نفس لفظة: (وَلَّى) – بمعنى: (ذهب)– سورة القصص، الآية، (٣١)، سورة لقمان، الآية، (٧).

٦() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١٢٠٣/١.

٧() سورة الإسراء، جزء من الآية، (٤٦)، انظر: نفس لفظة: (وَلَّوْا) – بمعنى: (رجعوا)– سورة النمل، الآية، (٨٠)، سورة الروم، الآية، (٥٢)، سورة الفتح، الآية، (٢٢).

٨() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١٢٠٣/١،١٢٠٤.

- قوله تعالى: **{يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ}**[٣]. أي: " ترجعون منهزمين "[٤].
- قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ}**[٥]. أي: فلا " تعطوهم ظهوركم، والمراد: تفرون "[٦].
- قوله تعالى: **{لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ}**[٧]. أي: " ينهزمون فيفرون من المعركة، مولينكم أدبارهم، أي: ظهورهم "[٨].

ثالثًا: التوجه والقصد، وقد جاء ذلك موزعًا حسب الأبعاد النزوعية لمظهري التوجه والقصد، في **(أحد عشر)** موضعًا، كالآتي:

- قوله تعالى: **{فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}**[٩]. أي: " توجه "[١٠].

١() سورة الكهف، جزء من الآية، (١٨)، انظر: نفس لفظة: (وَلَّيْتَ) - بمعنى: (رجعت)- سورة التوبة، الآية، (٢٥).

٢() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١/١٢٠٤.

٣() سورة غافر، جزء من الآية، (٣٣).

٤() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١/١٢٠٤.

٥() سورة الأنفال، الآية، (١٥).

٦() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١/١٢٠٤.

٧() سورة آل عمران، جزء من الآية، (١١١)، انظر: نفس لفظة: (يُوَلُّ) - بمعنى: (ينهزم)- سورة الأنفال، الآية، (١٦). سورة الأحزاب، الآية، (١٥)، سورة الحشر، الآية، (١٢).

٨() أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، ١/٣٥٩.

٩() سورة البقرة، جزء من الآية، (١٤٤)، انظر: نفس لفظة: (وَلِّ) - بمعنى: (توجه)- الآيتان، (١٤٩، ١٥٠) من نفس السورة، وبصيغة الجمع، من نفس السورة، في الآيتين أيضًا، وهو قوله تعالى: (فَوَلُّوا)، وفي قوله تعالى:(فَلَنُوَلِّيَنَّكَ)، بمعنى: " فلنوجهنك إليها " في الآية، (١٤٤) من نفس السورة. انظر: الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١/١٢٠٤.

١٠() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١/١٢٠٤.

- قوله تعالى: **{لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ}**[١]. أي: " اتجهوا إليه "[٢].
- قوله تعالى: **{فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}**[٣]. أي: " توجهوا"[٤].

رابعًا: المشاركة والضلوع في الأمر، وقد جاء ذلك موزعًا حسب الأبعاد النزوعية لمظهري المشاركة والضلوع، في **(موضعين اثنين)**، كالآتي:

- قوله تعالى: **{نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}**[٥]. أي: " نمكنه منه"[٦].

خامسًا: الطاعة والمولاة، وقد جاء ذلك موزعًا حسب الأبعاد النزوعية لمظهري الطاعة والمولاة، في **(سبعة)** مواضع، كالآتي:

- قوله تعالى: **{وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا}**[٧]. " أي: ومن يتولى القيام بطاعة الله ونصرة رسوله والمؤمنين "[١].

١() سورة التوبة، الآية، (٥٧)، انظر: نفس لفظة: (وَلَّوْا) – بمعنى: (اتجهوا إليه)– سورة الأحقاف، الآية، (٢٩).

٢() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١٢٠٣/١.

٣() سورة البقرة، جزء من الآية، (١١٥)، انظر: نفس لفظة: (تُوَلُّوا) – بمعنى: (توجهوا)– الآية، (١٧٧) من نفس السورة، سورة الأنبياء، الآية، (٥٧).

٤() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١٢٠٤/١.

٥() سورة النساء، جزء من الآية، (١١٥)، انظر: لفظة: (نوَلَّى) – بمعنى: (نمكنهم منهم، نصرة أو إغواء)– سورة الأنعام، الآية، (١٢٩). الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١٢٠٤/١.

٦() الإدارة العامة للمعجمات، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١٢٠٤/١.

٧() سورة المائدة، جزء من الآية، (٥٦).

- قوله تعالى: **{إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}**[٢]. " كانت الصلة بالمال والبر والإقساط ولين الكلام والمراسلة بحكم الله، غير ما نهوا عنه من الولاية، لمن نُهوا عن ولايته مع المظاهرة على المسلمين "[٣].
- قوله تعالى: **{إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِين}**[٤]. " أي: إن وليِّيَ الله، الذي يتولى حفظي ونصري.. وهو يتولى الصالحين مِن عباده، وينصرهم على أعدائهم ولا يخذلهم "[٥].
- قوله تعالى: **{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}**[٦]. " أي: يناصحهم ويحبهم منكم"[٧].
- قوله تعالى: **{إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ}**[٨].

أي: " بطاعته والعمل بتزيينه للشر والباطل "[٩].

- قوله تعالى: **{كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ}**[١]. أي: " اتّبعه "[٢].

١() القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٢٢٢.

٢() سورة الممتحنة، الآية، (٩).

٣() الشنقيطي، أضواء البيان، ٨/ ٩٥.

٤() سورة الأعراف، الآية، (١٩٦).

٥() مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، ١٧٦.

٦() سورة المائدة، جزء من الآية، (٥١)، انظر: نفس لفظة: (يَتَوَلَّهُمْ) – بمعنى: (يناصحهم ويحبهم منكم)– سورة التوبة، الآية، (٢٣).

٧() السمرقندي، بحر العلوم، ٣/ ٤١٦.

٨() سورة النحل، الآية، (١٠٠).

٩() أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، ٣/١٥٦.

من خلال ما سبق في بيان معاني لفظة التولي في القرآن يمكن إيراد بعض الملاحظات والتساؤلات:

أولًا- الملاحظات:

- بعد البحث والتقصي، لاحظت الدراسة أنّ مجموع **مظهر الإعراض** بأبعاده النزوعية قد جاء في المرتبة الأولى، بالنسبة لجذر لفظة التولي، وذلك من بين كافة المظاهر الأخرى، ولعل ذلك يؤكد على أنّ مظهر الإعراض يُعد البداية الحقيقية لأمر التولي عن منهج الله تعالى، كما يعتبر أحد أهم الضوابط التي يُمكن أنّ يقاس بها مدى استقامة الأفراد والأمم على منهج الله تعالى من عدمه، علمًا بأنّ ما بعده من المظاهر يأتي في سياق التبعية الفعلية التلازمية.

ويشهد لذلك قوله تعالى في شأن الوليد بن المغيرة، حيث يقول تعالى في بداية قصة إعراضه **{إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا}**[٣]. وهو ما يؤكد أنّ الأصل في كفره كان إعراضًا عن الحق.

ويأتي في المرتبة الثانية **بعد الإعراض مظهر النكوص والرجوع**، ويظهر ذلك في حركات وجه الوليد، حين يقطَّب وجهه ويشتد " في العبوس والكُلُوح لمَّا ضاقت عليه الحيل "[٤]، قال تعالى: **{ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ}**[٥].

١() سورة الحج، جزء من الآية، (٤).

٢() النيسابوري، الكشف والبيان، ٧/ ٥.

٣() سورة المدثر، جزء من الآية، (١٦) .

٤() مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، ص٥٧٦.

٥() سورة المدثر، الآيات، (١٨- ٢٢) .

ثم يجيء في أعقاب ذلك مظهر **التوجه والقصد** عن اتباع الحق، قال تعالى: **{ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ}**[١]. وهو الذي لم يلبس أنْ كان جالسًا بين قومه يصف القرآن بعدما سمعه بقوله: إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه يعلو ولا يُعلى عليه.

وما أنْ ينتهي من توجهه وقصده حتى يُعْلن عن مظهر **الطاعة والموالاة** لساداته، بعدما همس أبو جهل في أذنيه بكلمات. فأقبل الوليد على القوم بوجهه، قائلًا مقولة الطائع المُوالي، قولوا في الرجل قولةً واحدةً .. ولا تختلفوا حتى لا يظهر كذبكم. فيقول بعد تفكر مؤكدًا طاعته وموالاته: **{إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ}**[٢].

وبِوَسْم كلام الله تعالى بالسحر ينزل الوليد في مظهر أخير، وهو التمكن من معاداة المؤمنين فيصبح بذلك **مشاركا وضالعًا** في أمر العناد والكفر.

ثانيًا – التساؤلات:

- إذا كانت الدلالات اللغوية للفظة التولي قد تعددت بين الإدبار، والمنع، والإباء، والتوجه والقصد، والطاعة والموالاة، والرجوع والانصراف عن الشَّيء بالجسم، أو الإعراض عنه بالقلب، وإذا كانت كل هذه الدلالات تأتي لمجموع أفراد الأمة بدرجات متفاوتة شدة وضعفًا، فهل يمكن القول بأنْ الحد الأدنى من كل هذه الدلالات غير موجب للاستبدال؟ وإذا كان ذلك كذلك، فهل يمكن تصور المعيار الكامل للاستبدال؟.

١() سورة المدثر، الآية، (٢٣) .

٢() سورة المدثر، جزء من الآية، (٢٤،٢٥) .

- إذا كان عطف قوله تعالى: **{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا}**[1]. على قوله: **{وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا}**[2]. في الآية السابقة، من قوله: **{إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ}**[3]. معناه: إنْ تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم لتوافر الإيمان لديكم، وإنْ تتولوا وتعرضوا عن هذا الإيمان وتلك التقوى يستبدل قومًا غيركم. وإذا كان الإيمان لا يقابله إلا الكفر. فهل يمكن القول بأنّ المقابلة هنا تعني: أنّ التولي يقابل الإيمان؟.

١() سورة محمد، جزء من الآية، (٣٨) .

٢() سورة محمد، جزء من الآية، (٣٧) .

٣() سورة محمد، جزء من الآية، (٣٧) .

المبحث الثاني

دواعي الاستبدال في القرآن

إنّ سُنَّة الاستبدال تضع المجتمع المسلم أمام مسئولياته الرسالية والحضارية، وكلما ازداد وعي المجتمع بهذه السُنَّة، كان إدراكه لأهمية الإصلاح، والتقويم، والمراجعة أمرًا محتمًا ولازمًا، وبذلك تترسخ القناعة لديه بوجوب الإصلاح، وأهمية دور المصلحين في حماية المجتمع، من التقهقر والانكماش والاندثار الحضاري.

ولقد جرت في عقود مضت من تاريخ المسلمين سُنَّة الاستبدال[١]، حيث توفرت دواعيه وموجباته، وبانت بين جميع طبقاته وفئاته الحاكمة منها والعالمة، بل وفي ضميره الجمعي، حتى غدت الأمة كيانًا مريضًا مستبدلًا.

وما أشبه اليوم بالبارحة، فقد تراجعت في الأمة الإسلامية سُنَّة " التدافع" بين الخير والشر, فكثر شرها, وتكاثرت منكراتها، ودعا إلي ذلك بعض كبرائها، فغاب نور رسالتها عن البشرية فترة تراجعها وتحلل كيانها، فلم يعد هو ذاك الكيان القادر على تبليغ رسالته والحفاظ على ماضيه وتاريخه؛ بل أضحى كيانًا مريضًا، مُسَيّرًا، لا مخيّرًا،

١() وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها بحال من الأحوال، ولعل من بين الدول التي حلت بها سنة الاستبدال في تاريخ الأمة الإسلامية، على سبيل المثال لا الحصر: الدولة الأموية، والدولة العباسية، والدولة العثمانية : وترجع أسباب سقوط هذه الدول إلى فساد نظام الحكم فيها، وضعف الأمراء والخلفاء. انظر في ذلك كله: د. عبد الحليم عويس، بنو أمية بين السقوط والانتحار، دراسة حول سقوط دولة بني أمية في المشرق، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، د. سعد بن محمد حذيفة الغامدي، سقوط الدولة العباسية ودور الشيعة بين الحقيقة والاتهام، دار ابن حذيفة، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، د. تركماني، أسباب سقوط الدولة العثمانية، تحت عنوان: الأسباب المباشرة والغير مباشرة في سقوط الدولة العثمانية.

أسيرًا، لا حرًا، تابعًا، لا متبوعًا، مقلدًا، لا مبدعًا. من أجل ذلك استحقت الأمة الاستبدال، واستبدالها ليس بذهابها بالكلية، وإنّما بضعفها، ونقل راية العزة والقيادة لغيرها من الأمم.

أولًا: أنواع الاستبدال.

بإمعان النظر في كتاب الله تعالى، وُجد أنّ الاستبدال يرجع إلى نوعين:

الأول: استبدال على الحقيقة، وهو الاستبدال بالأفضل، وهذا ما صرحت به الآيات القرآنية، قال تعالى: **{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}**[١]. " أي أطوع لله منكم "[٢]. وقال أيضًا: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}**[٣]. والآية فيها " وَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ، أَنَّهُ مَنِ ارْتَدَّ مِنْهُمْ سَنَسْتَبْدِلُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ "[٤].

الثاني: استبدال على سبيل المجاز، وهو الاستبدال بالغير مطلقًا، ولو كان المستَبْدَل به كافرًا، ويكون ذلك بسقوط الراية، وتفرق الشمل، والسقوط في منحدر الفاقة، والفقر، والعوز، وغلبة الأمم والشعوب، وأفول شمس الحضارة والتمكين.

وهذا ما حدث مع بني إسرائيل حيث داهمهم بختنصر. وقد أخبرنا القرآن الكريم عن ذلك بقوله: **{وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ**

١() سورة محمد، جزء من الآية، (٣٨) .

٢() القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢٥٨/١٦.

٣() سورة المائدة، جزء من الآية، (٥٤) .

٤() عبد الرحمن بن إدريس الرازي أبو محمد(ت٣٢٧هـ)، تفسير ابن أبي حاتم: تفسير القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، برقم، (٦٥٣٦)، جـ٤، ص١١٦٠.

وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا}(١). وقد " بَعَثَ ملك فارس ببابل جيشًا، وأمّرَ عَلَيْهِمْ بختنصر فدمروهم. فهذا وعد الآخرة"(٢).

وهكذا استبدل الله بني إسرائيل، لتوليهم وإعراضهم عن الالتزام بأوامر الله مع أنّهم – في الظاهر – حملة رسالة سماوية، وكتاب مقدس، وهو التوراة، بغيرهم من الكفار. وقد كان ذلك الاستبدال نتيجة حتمية لفسادهم وبُعدهم عن منهج الله تعالى.

ثانيًا: أشكال الاستبدال.

للاستبدال أشكال ثلاثة، وهي كما يأتي:

- الردة عن دين الإسلام، قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ..}**(٣).

" أخبر تعالى أنّه من يرتد من المؤمنين سوف يأتي الله ﷻ بخير منه ممن يحبون الله ويحبهم الله تعالى، رحماء بالمؤمنين، أشداء على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لوم من يلوم "(٤).

- الإعراض والانصراف عن نصرة وإعلاء كلمة الإسلام، قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ**

١() سورة الإسراء، الآيتان، (٤،٥) .

٢() ابن أبي حاتم ، تفسير ابن أبي حاتم، ٧/ ٢٣١٨.

٣() سورة المائدة، جزء من الآية، (٥٤) .

٤() أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، ١/٦٤٤.

أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ، إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ..}[1]. " فالمقصود تهديدهم بأنّهم إنْ تقاعدوا عن النفير هاجمهم العدوّ في ديارهم، فاستأصلوهم وأتى الله بقوم غيرهم "[2].

- الإعراض عن الإنفاق في وجوه الخير ونصرة دين الإسلام، قال تعالى: **{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}**[3]. " أي يذهبكم ويأت بغيركم "[4]. فمن تولى عن نصرة هذا الدين وعقيدته، أو تولى عن الإنفاق في وجوه الخير ، فقد عرض نفسه للاستبدال.

ولعل الحكمة من سنة الاستبدال تستند في ذاتها إلى أنّ الله تعالى خلق الإنسان وسخر له هذا الكون لهدف وغاية معلومة. قال تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ}**[5]. وبالرجوع إلى كتاب الله ﷻ وُجِد أنّ الله تعالى قد عبر عن هذا الهدف وتلك الغاية بأمور عدة، منها:

- **الاستخلاف في الأرض**، قال تعالى: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}**[6]. أي: " أنّه أراد قومًا يَخْلُفُ

١() سورة التوبة، الآية، (٣٨).
٢() ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٠/١٩٩.
٣() سورة محمد، جزء من الآية، (٣٨) .
٤() السمرقندي، بحر العلوم، ١/ ٣٧١.
٥() سورة الأنعام، جزء من الآية، (٧٣) .
٦() سورة البقرة، الآية، (٣٠).

بعضهم بعضًا من ولد آدم، الذين يخلفون أباهم آدم في إقامة الحق وعمارة الأرض "[١].

- العبادة، قال تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}**[٢]. " فالعبادة هي الغاية، التي خُلِق لها الجن والإنس، والخلائق كلها "[٣].
- الإقرار بالذنب والاستغفار منه، قال تعالى: **{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ}**[٤].

وهذه الآيات وغيرها الكثير تؤكد على أنّ لله من وراء خلق عباده غرضًا وغايةً، ومن أجل تحقيقها أرسل الرسل وأنزل الكتب ليقوم الإنسان بتحقيق مراد الله من خلقه، بالسير على منهجه القويم، لذلك كتب الله تعالى على نفسه أنْ ينصر الرسل وأتباعهم، وأنْ يحقق الأهداف التي أرسلهم منْ أجلها. كما كتب على نفسه أنْ يحقق الأهداف التي من أجلها خلق الخلق. وعليه، فإذا أبى جيلٌ من الأجيال تحقيق هذه الأهداف وتلك الغايات التي يريدها الله تعالى من خلقه جرت عليه سنة الابدال والاحلال؛ ليقوم المستبْدَل به محل مَنْ فشلوا في تحقيق مراد الله منهم.

١()علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، أبو الحسن، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت، جـ١، ص ٩٥.

٢() سورة الذاريات، الآية، (٥٦).

٣() محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي الحنبلي ابن القيم(ت٧٥١هـ)، التفسير القيم للإمام ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت، ص٨٨.

٤() سورة هود، الآية، (٦١).

المطلب الأول: دواعي استبدال قوم نوح عليه السلام.

جرت سنّة الله ﷻ في كونه أنْ يرسل الأنبياء والمرسلين إلى العباد حاملين لواء الهداية إليهم، بالدعوة إلى عبادته وتوحيده، فمن استجاب وأطاع فله الأجر والثواب، ومن أعرض وكفر فله السخط والعذاب. وموكب الرسل والأنبياء موكب عظيم القدر فائق الشرف، كثير العدد؛ لِمَا للدعوة إلى الله ﷻ من شأن عظيم، وفضل عميم.

لذلك يّحْسُن بكل مسلم أنْ يكون له أوفر الحظ والنصيب فيها، غير أنّ هذه الدعوة لها دعائم وركائز أساسية، يجب أنْ يستعين بها الدعاة في دعوتهم؛ كي يكون التوفيق حليفهم. ومن أهم هذه الركائز في طريق الدعوة إلى الله تعالى: الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. والدعوة بالحكمة منهج جميع الأنبياء والمرسلين، وهو منهج قائم على الحوار بالحجة والبرهان؛ بغية تقرير المذهب أو الاعتقاد المراد تقريره وتثبيته في قلب السامع، قال تعالى: **{ادْعُ إِلِىَ سَبِيلِ رَبّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ}**[1].

يقول ابن عاشور:" ومن الإعجاز العلمي في القرآن أنّ هذه الآية جمعت أصول الاستدلال العقلي الحقّ، وهي البرهان والخطابة والجَدل المعبّر عنها في علم المنطق بالصناعات وهي المقبولة من الصناعات. وأما السفسطة والشعر فيَرْبَأُ عنهما الحكماء الصادقون بله الأنبياء والمرسلين "[2]. لذلك، كانت الحكمة والجدال بِالّتِي هِيَ أَحْسَن منهجًا حضاريًا متكاملًا، يدعو إلى ترسيخ مبادئ الحوار بين الشعوب.

١() سورة النحل، جزء من الآية، (١٢٥) .

٢() ابن عاشور، التحرير والتنوير،١٣/ ٢٦٦.

وقد امتثل نوح عليه السلام تطبيق هذا المنهج الإسلامي في دعوته؛ مستهدفًا صلاح قلوب قومه، قال تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام: **{يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ، يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}**(١). وقال أيضًا: **{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا}**(٢).

وهذا دليل على عدم الهوادة والحرص الشديد على هداية وإرشاد قومه، وأنّه يترصد الوقت الذي يتوسم فيه أنّهم أقرب إلى فهم دعوته، من أوقات النشاط، وهي أوقات النهار، ومن أوقات الهدوء وراحة البال، وهي أوقات الليل. وقد بَيّن تعالى مدة مكثه فيهم على تلك الحالة في قوله تعالى: **{فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}**(٣).

ورغم طول الفترة التي مكثها نوح عليه السلام بين قومه، إلا أنّه لم ييأس من تكرار دعوتهم إلى الله، بل حاول أنْ يُنوع ويبتكر أساليب أخرى، يمكن أنْ يصل بها إلى قلوبهم. لذلك، عَمَدَ نبي الله نوح عليه السلام إلى استخدام الحقائق العلمية الثابتة كوسيلة لتوصيل دعوته، قال تعالى: **{وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}**(٤).

١() سورة نوح، الآيات، (٢- ٤) .

٢() سورة نوح، الآيات، (١٠، ١٢).

٣() سورة العنكبوت، الآية، (١٤) .

٤() سورة نوح، الآية، (١٤) . وقد خلقكم أطوارًا : " أي نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظامًا، ثم نكسوا العظام لحمًا، فإذا هو إنسان كامل" . أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، ٤٦٩/٤.

فهذا علم الأجنة[1] يستخدمه نوح عليه السلام في مخاطبة قومه، وكأنّه يريد أنْ يقول لهم من خلال ذكره لهذا العلم. " أمن كان هذا حاله يليق به أنْ يكفر ويتكبر ويستغني عن الله؟ فلينظر إلى مبدئه ومنتهاه وما بينهما، مبدأه نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة. وهو بينهما حامل عذرة. كيف يكفر وكيف يتكبر؟ "[2].

وفي ذلك إشارة إلى أنّ الذي ينفرد بالخلق والتدبير البديع، متعين أنْ يُفْرد بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد، وأنّ الذي أنشأهم من العدم قادر على أنْ يعيدهم بعد موتهم." وهم يدركون ذلك بأدنى التفات الذهن، فكانوا محقوقين بأنْ يتوصلوا به إلى معرفة عظمة الله وتوقع عقابه؛ لأنّ الدلالة على ذلك قائمة بأنفسهم "[3].

ويواصل نوح عليه السلام ترغيب قومه، بذكره لبعض الحقائق الثابتة لعلم الفلك، لافتًا أنظارهم إلى عجائب صنع الله في خلقه، وتقرير ذلك حيث الرؤية البصرية والعلمية، قال تعالى: **{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}**[4].

وما أنْ ينتهي نوح عليه السلام من مخاطبة قومه ببعض حقائق علم من العلوم، إلاّ وينتقل بهم إلى حقائق علم آخر، فبعد أنْ يقرر لهم بعض حقائق علم الفلك، منبهًا

١() " ومن الآيات التي أوضح فيها تلك الأطوار على التفصيل، قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }. إلى غير ذلك من الآيات. انظر: الشنقيطي، أضواء البيان، ٤/ ٢٧٠،٢٧١.

٢() أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، ٥/٥٢٠.

٣() ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢٠١.

٤() سورة نوح، الآيتان، (١٥،١٦) .

إياهم إلى خلق السموات، وما فيها من أجرام وأفلاك وكواكب وشموس وأقمار، وما في ذلك من الدلالات الواضحات على وحدانية الله تعالى وقدرته، إذ به ينتقل بهم إلى تقرير بعض حقائق علم النبات، لافتًا انتباههم وأنظارهم إلى التأمل في مبدئهم وإعادتهم إلى الحياة مرة أخرى بعد موتهم. قال تعالى:**{ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}**(١).

" أي والله أوجد أباكم آدم من التراب، وجعله ينمو ويكبر كالنبات، وجعل نموكم معتمدًا على الغذاء من نتاج الأرض، وتحولها إلى نبات أو حيوان، ثم يعيدكم في الأرض، تموتون وتتحلل أجزاؤكم، حتى تعود ترابًا مندمجًا في الأرض، ثم يخرجكم أحياء منها بالبعث يوم القيامة، إخراجًا دفعة واحدة، لا إنباتًا بالتدريج كالمرة الأولى"(٢).

" كما يمكن أنْ يقال للمخاطب كما شاهدت خلق الإنسان من عدم وتطوره أطوارًا وشاهدت إحياء الأرض الميتة، فإنّ الله الذي خلقك وأحيا لك الأرض الميتة قادر على أنْ يعيدك ويخرجك منها إخراجًا "(٣).

ثم يختم نوح عليه السلام هداياته وإرشاداته لقومه بواسطة تقرير حقائق علم جديد، ليؤكد لهم من خلاله، على أنّه إذا كان أصل وجود الأشياء في الدنيا مرتبطًا بالأسباب، وذلك عملًا بالناموس المعمول به في الكون كله، فإنّ الإيمان بالله تعالى ما كان له أنْ يتأتى بالسبب، أو الناموس الدنيوي، وإنّما كل ميسر لما خُلق له، فمن كتب الله تعالى

١() سورة نوح، الآيتان، (١٧،١٨) .

٢() د وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط٢، ١٤١٨هـ، جـ٢٩، ص ١٤٤.

٣() الشنقيطي، أضواء البيان، ٣١٠/٨.

له الإيمان فسيؤمن، ومن كتب له غير ذلك فله ذلك. إنّه علم الأخذ بالأسباب، قال تعالى: **{والله جَعَلَ لَكُمُ الأرض بِسَاطاً، لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً}**[1].

من خلال ما سبق يمكن القول بأنّ نوحًا عليه السلام استطاع أنْ يقيم الدلائل البينة، والبراهين الواضحة على وحدانية الله تعالى، حيث سلك مع قومه مسالك متعددة؛ لإقناعهم بصحة ما يدعوهم إليه، ولحملهم على طاعته، والإيمان بصدق رسالته. فقد دعاهم بالليل والنهار، وفى السر وفى العلانية، وبَيّن لهم أنّ طاعتهم لله ﷻ تُؤدى إلى إمدادهم بالأموال والأولاد، والجنات والأنهار، ووبخهم على عدم خشيتهم لله تعالى.

ومع كل هذا الجُهد المتواصل من جانب نوح عليه السلام في سبيل هداية قومه، إلاّ أنّ البلادة المتأصلة في نفوس وقلوب قومه أبت إلاّ الإعراض والإباء والكفر بنعم الله تعالى عليهم، قال تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام: **{قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا، وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا، وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}**[2].

وعليه، فإنّ قوم نوح عليه السلام قد باشروا الشروط الموجبة لاستبدالهم بغيرهم، وهي: التولي والإعراض والانصراف عن الاستجابة لدعوة التوحيد، وكذا التوجه والقصد إلى إضلال الناس، والمشاركة والضلوع في الصد عن الدعوة إلى الله تعالى، نصرة وطاعة وموالاة للكافرين على المؤمنين. فاستحقوا بذلك الاستبدال بالاستئصال والزوال بالكلية، قال تعالى: **{فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}**[3]، وقد جاء هذا التولي والإعراض على النحو الآتي:

١() سورة نوح، الآيتان، (١٩، ٢٠) .

٢() سورة نوح، الآيات، (٢١-٢٣) .

٣() سورة العنكبوت، الآية، (١٤) .

- الإعراض عن سماع الدعوة واللوذ بالفرار. قال تعالى: **{قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا}**[١].
- الإعراض عن طاعة الرسول، بطاعة وموالاة القادة والرؤساء، الذين أبطرتهم أموالُهم، وغرّتهم أولادُهم، فلم يزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالًا في الدنيا وعقوبة في الآخرة[٢]. قال تعالى: **{قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا}**[٣].
- الإعراض عن قبول الإيمان، والإصرار على بغضه وكراهته، قال تعالى على لسان نبيه نوح عليه السلام: **{وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ}**[٤]. وهذا " يدل دلالة واضحة على شدة بغضهم وكراهتهم لما يدعوهم إليه نوح عليه السلام "[٥].
- التوجه والقصد إلى الإصرار والاستكبار عن قبول الدعوة. قال تعالى: **{وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا}**[٦]. وهذا " واضح في أنّهم كبر عليهم ما يدعوهم إليه، من توحيد الله والإيمان به "[٧].
- التوجه والقصد إلى إضلال الناس والاحتيال في الدين – من قبل الرؤساء – لصد الناس عن اتباع نبي الله نوح عليه السلام ودعوتهم إلى عبادة الأصنام[١]، قال تعالى: **{وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا}**[٢].

١() سورة نوح، الآيتان، (٥،٦) .
٢() انظر: ابن عجيبة، البحر المديد، ٨/ ٢٢١.
٣() سورة نوح، الآيتان، (٥،٦) .
٤() سورة نوح، جزء من الآية، (٧) .
٥() الشنقيطي، أضواء البيان، ٧/ ٦٢.
٦() سورة نوح، الآية، (٧) .
٧() الشنقيطي، أضواء البيان، ٧/ ٦٢.

- المشاركة والضلوع في تثبيت الناس على ما هم عليه من الشرك، وحثهم على عدم ترك الشرك إلى التوحيد، قال تعالى: **{وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً}**(٣). لذلك: " أضلوا بقولهم هذا وبغيره من تقاليد الشرك كثيرًا من الأمة، بحيث ما آمن مع نوح عليه السلام إلاّ قليل "(٤).

لكل ما سبق استحق قوم نوح عليه السلام أنْ يُسْتَبْدَلُوا بِعَاد قوم هود عليه السلام قال تعالى: **{وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً}**(٥).

المطلب الثاني: دواعي استبدال قوم هود عليه السلام.

تمتّعت عاد قوم هود عليه السلام بالكثير من النعم، فقد كانت أرضهم وفيرة بالمياه، إضافة إلى ذلك منحهم الله تعالى قوة وسعة في الأجساد، وقد ساعدهم ذلك في بناء القصور الشامخة العالية. وبالرغم من تفضيل الله ﷻ لهم بكلّ هذه العطايا إلاّ أنّهم عبدوا الأصنام من دونه، واتخذوا من دونه شركاء فيما رزقهم، يتقربون إليها. فجاءهم نبي الله هود عليه السلام " لما رأى من قومه تمحّضًا للشغل بأمور دنياهم، وإعراضًا عن الفكر في الآخرة، والعمل لها، والنظر في العاقبة، وإشراكًا مع الله في إلهيته، وانصرافًا عن عبادة الله وحده الذي خلقهم وأَعْمَرهم في الأرض وزادهم قوة على الأمم، فانصرفت همّاتهم إلى التعاظم والتفاخر واللهو واللعب "(٦).

١() انظر: مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، ص٥٧١.

٢() سورة نوح، الآية، (٢٢).

٣() سورة نوح، الآية، (٢٣) .

٤() ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٩/ ٢١٠.

٥() سورة الأعراف، جزء من الآية، (٦٩) .

٦() ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٦٥/١٩.

فأخذ يبيّن لهم ضلالهم، ويُرشدهم إلى الطريق القويم، لكنّهم جحدوا بآيات الله وكذّبوه[١]، ونعتوه بالسفه والكذب، قال تعالى: **{قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}**[٢]، ثمّ إنّهم أنكروا قدرة الله ﷻ في إنزال البأس بهم إنْ هم كفروا وتولّوا، قال تعالى: **{فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}**[٣]، استكبارًا وعتوًا في الأرض.

ثمّ عاود نبي الله هود عليه السلام النصح بأسلوبٍ جديدٍ، فذكّرهم بفضل الله تعالى عليهم، بأنْ جعلهم خلفاء من بعد قوم نوحٍ عليه السلام، ونصحهم بشكر النعم لعلّهم يفلحون، قال تعالى: **{وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}**[٤]، لكنّ القوم أصرّوا على كفرهم وعنادهم، وتحدّوا نبيهم أنْ يُنزل عليهم العذاب، فأذن الله في أنْ يُنزل فيهم نقمته وعذابه، قال تعالى: **{قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ}**[٥]، فأرسل الله عليهم " ريحًا شديدة البرد، في يوم شؤم مستمر عليهم بالعذاب والهلاك، تقتلع الناس من مواضعهم على الأرض فترمي بهم على رؤوسهم، فتدق أعناقهم، ويفصل رؤوسهم عن أجسادهم، فتتركهم كالنخل المنقلع من أصله "[٦].

وهذه سُنة الله تعالى في خلقه، فالكثير يخطئ ثم يتوب، فيتوبُ الله عليه، ولكن من يكفر ويتمادى في كفره وطغيانه؛ فإنّ الله أحقُ بأنْ ينتقم منه لانتهاكه حُرماته، وتكذيبه لأنبيائه ورسله. فهذه عادٌ استكبروا في الأرض بغير الحق، وعصوا رسله، وقد

١() انظر: أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، ٢/٥٥٥.

٢() سورة الأعراف، الآية، (٦٦) .

٣() سورة فصلت، جزء من الآية، (١٥) .

٤() سورة الأعراف، جزء من الآية، (٦٩) .

٥() سورة المؤمنون، الآية، (٤٠) .

٦() مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، ص٥٢٩.

باشروا بذلك الشروط الموجبة لاستبدالهم بغيرهم، وهي: التولي والإعراض والانصراف عن الاستجابة لدعوة التوحيد، فاستحقوا بذلك الاستبدال بالإهلاك والزوال بالكلية، قال تعالى: **{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}**[١]، وقد جاء هذا التولي والإعراض على النحو الآتي:

- الإعراض عن هداية الإرشاد المبعوث بها الرسول الكريم إليهم[٢] بالاستكبار والاغترار بالقوة، قال تعالى: **{فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}**[٣]. " أي: فهديناهم فاستكبروا "[٤].
- الإعراض عن الإيمان بآيات الله ﷻ، قال تعالى: **{وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ}**[٥]. أي:" كفروا بها وكذبوها وأنكروا المعجزات "[٦].
- الإعراض عن طاعة أمر نبي الله هود عليه السلام، قال تعالى: **{وَعَصَوْا رُسُلَهُ}**[٧]. " أي هودًا، وجُمع لأنّ من كذب برسول، كأنّما كذب بكل الرسل "[٨].
- التوجه والقصد إلى طاعة وموالاة الطغاة الجبارين الذين لا يقبلون الحق ولا يُذْعنون له[٩]. قال تعالى: **{وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ}**[١٠].

١() سورة فصلت، جزء من الآية، (١٦) .
٢() انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٢٤/ ٢٦٢.
٣() سورة فصلت، جزء من الآية، (١٥) .
٤() ابن عجيبة، البحر المديد، ٣٣٧/٦.
٥() سورة هود، جزء من الآية، (٥٩) .
٦() الشوكاني، فتح القدير، ٢/ ٥٠٦.
٧() سورة هود، الآية، (٥٩) .
٨() أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، ٥٥٥/٢.
٩() انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٥٤.
١٠() سورة هود، الآية، (٥٩) .

- الانصراف إلى التعاظم والتفاخر واللهو واللعب، عن عبادة الله تعالى، قال الله: **{أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ}**[١].
- المشاركة والضلوع في الطغيان والفساد في الأرض، قال تعالى: **{وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ}**[٢]. والمعنى: " الشدة على الخلق في العقوبة، وهذا من عدم التوازن في العقول، فهم يبنون العلامات لإرشاد السَّابِلة[٣]، ويصطنعون المصانع لإغاثة العطاش. فكيف يُلاقي هذا التفكير تفكيرًا بالإفراط في الشدة على الناس في البطش بهم، أي عقوبتهم"[٤].

لكل ما سبق استحق قوم هود عليه السلام أنْ يُسْتَبْدَلُوا بثمود قوم صالح عليه السلام. قال تعالى: **{وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا}**[٥].

المطلب الثالث: دواعي استبدال قوم صالح عليه السلام.

كما هو الحال مع عاد قوم هود عليه السلام، فقد منّ الله ﷻ على ثمود قوم صالح عليه السلام بالنعم الوفيرة، والعطاء الجزيل، وكانوا كذلك يبنون البيوت والقصور، وينحتون الجبال متقنين لذلك، ثمّ كفروا بأنعم الله ﷻ عليهم، فجعلوا له شركاء يعبدونهم من دونه، فأرسل الله لهم نبيّه صالحًا عليه السلام مرشدًا، وهاديًا، فاستخفّوا به وبدعوته، فجعلوا بينه وبينهم تحدّيًا حتى يؤمنوا به، ويصدّقونه فيما أخبر به.

١() سورة الشعراء، الآيتان، (١٢٨،١٢٩) .

٢() سورة الشعراء، الآية، (١٣٠) .

٣() السَّابِلة: الْمَارُّونَ، أو الْمَارَّةُ.

٤() انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٦٨/١٩.

٥() سورة الأعراف، جزء من الآية، (٧٤).

فاتفقوا على أنْ يُخْرِج لهم ناقةً من الصخرة، فأمر الله ﷻ الصخرة، فانشقّت عن ناقةٍ بكلّ المواصفات التي ذكروها له، وحين خرجت تلك الناقة من الصخرة كانت العلامة الفارقة، والمعجزة من عند الله تعالى، فآمن مع نبي الله صالح ﷺ خلقٌ كثيرٌ، لكنّ الكثير منهم استمر على كفره وعناده، وبقيت تلك الناقة بين أظهرهم تأكل، وتشرب، حتى أقبل أشقاهم على قتلها بالفعل، قال تعالى: **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا، إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا، فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا}**[1]. وحين ذلك شاء الله تعالى أنْ يُلحق بهم العذاب لكفرهم وتكذيبهم، فأمهلهم ثلاثة أيّامٍ، ثمّ أرسل إليهم جبريل ﷺ فصاح فيهم صيحةً ارتجّت من قوّتها الأرض، وتقطّعت قلوبهم، وتدمّرت مساكنهم، ووقع أمر الله تعالى بإهلاكهم.

مما سبق يتبين أنّ قوم نبي الله صالح ﷺ قد باشروا بذلك الشروط الموجبة للاستبدال بغيرهم، وهو التولي والإعراض والانصراف عن الاستجابة لدعوة التوحيد، فاستحقوا بذلك الاستبدال بالإهلاك والاستئصال بالكلية، قال تعالى: **{فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ}**[2]، وقد جاء هذا التولي والإعراض على النحو الآتي:

- الإعراض عن الإيمان بالتكذيب وطلب استعجال العذاب بما يقومون به من معاصي، قال تعالى: **{كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ}**[3]. يعني كذبت قوم صالح وقوم هود بالقيامة، وأما ثمود فأهلكوا بالطاغية يعني بطغيانهم. ومعناه:

١() سورة الشمس، الآيات، (١١-١٤) .

٢() سورة الأعراف، الآية، (٧٨) .

٣() سورة الحاقة، الآية، (٤) .

طغيانهم حملهم على التكذيب فأهلكوا[١]. قال تعالى: **{قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ}**[٢].

- الإعراض عن قبول الدعوة بالتذرع بما كان يعبده الآباء من قبل، والشك في أصلها، قال تعالى: **{أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}**[٣].
- الإعراض عن الانتفاع بهداية الإرشاد المتمثلة في إرسال الرسول أو النبي إليهم، حيث إنّهم اشتروا الضلالة بالهدى، قال تعالى: **{وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى..}**[٤]. أي: " دللناهم على الرشد، بنصب الآيات التكوينية، وإرسال الرسل، وإنزال الآيات التشريعية، {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}. أي: اختاروا الضلالة على الهداية "[٥].
- التوجه والقصد لقتل نبي الله صالح عليه السلام[٦]، قال تعالى: **{ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ، وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}**[٧].

١() السمرقندي، بحر العلوم، ٣/ ٤٦٦.

٢() سورة النمل، جزء من الآية، (٤٦) .

٣() سورة هود، الآية، (٦٢) .

٤() سورة فصلت، جزء من الآية، (١٧).

٥() ابن عجيبة، البحر المديد، ٦/ ٣٣٧.

٦() انظر: عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي أبو محمد، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، جـ٢، ص٤٢٢.

٧() سورة النمل، الآيتان، (٤٩،٥٠) .

- المشاركة في قتل ناقة الله، وهي معجزة نبي الله صالح ﷺ قال تعالى: **{فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ}**(١).
- إعراض الرؤساء واستكبارهم عن قبول دعوة التوحيد، قال تعالى: **{قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}**(٢).

لكل ما سبق استحق قوم صالح ﷺ أنْ يُسْتَبْدَلُوا بغيرهم.

المطلب الرابع: دواعي استبدال الأمة الإسلامية في العصر الحاضر.

أنعم الله تعالى على الأمة العربية بنزول القرآن فأنار بصائرها، وبعث الحرارة الدينية في نفوس أبنائها، مما جعل سلطانها يمتد إلى سائر مَنْ حولها، فملكت دولة الفرس التي قتلتها البطنة والنعيم، وامتدت إلى بلاد الروم فغلبتها، وحلت محل الدولتين العُظمتين، ثم طال على الأمة الإسلامية الأمد وأسكرها النعيم، وكبلتها الشهوات، فجاءها التتار من المشرق، والفرنجة من المغرب، فصارعوها فصرعوها، فنامت إلى حين، ثم هي الآن تريد أن تأخذ مكانتها(٣).

يتفقد طنطاوي جوهري- بقوله السابق- واقع الأمة الإسلامية الآني، ويتأمل حالها مقارنًا بين ماضيها العريق، وحاضرها المتردي - وفق واقعها الحالي - والذي تشابهت مقدماته مع واقع مشابه، فجاءت نتائجه مماثلة لنتائج ذلك الواقع، وكأني به يستشرف ذلك المستقبل، بقوله: لن تقوم لهذه الأمة قائمة ما دامت الأمة تَأْنس باللذات، وتَغْرق في بحر الشهوات، وتَسْكَر في الترف والنعيم، فإنّ الرضوخ للترف والنعيم أصل

١() سورة الأعراف، جزء من الآية ، (٧٧) .

٢() سورة الأعراف، الآية، (٧٦) .

٣() انظر: طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن الكريم، المشتمل على عجائب المكونات وغرائب الآيات الباهرات، مصطفى البابي الحلبي، مصر، جـ١، ص٦٦.

من أصول الاستعباد والاسترقاق، كما أنّه داع إلى فعل المعاصي والمحرمات، ومُبْعِد عن الوصول إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات في الدنيا والآخرة.

يقول الشعراوي: " الفساد في الدنيا ناشئ مما أحدثه البشر على غير منهج الله تعالى، فالأمر الفاسد إنّما يأتي من داخل نفوس البشر عندما يضلون عن منهج الله"(١).

ولعل خطورة تفريط الأمة في الأوامر الشرعية التي كُلّفت بها راجع إليها أجمع. وللمحقق أنْ ينظر إلى العقوبة التي عُوقب بها بنو إسرائيل لتركهم العهد الذي عليهم تجاه نبي الله موسى عليه السلام قال تعالى: **{وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إسرائيل وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}**(٢).

فكانت عقوبتهم بقاء الأمة في العذاب والتيه(٣)، وعدم الهداية إلى طريق الخلاص من عذاب الفرعون، وتأمل هذا كله كان مع وجود القائد المصْلِح، وهو النبي المرسل عليه السلام.

وعليه، فإنّ الخلل الحاصل في أمتنا قد لا يكون من عدم وجود القائد، المتمثل في شخص الرسول ﷺ، بل هو من إعراض الأمة وانصرافها عن الاستجابة لأوامر

١() الشعراوي، تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، جـ٥، ص٢٨٦٥، ٢٨٦٦.

٢() سورة الأعراف، الآية، (٧٦) .

٣() وذلك " حِينَ نَكَلُوا عَنِ الجِهَادِ، قَضَى اللهُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ حَرَّمَ عَلَيهِمْ دُخُولَها أربعينَ سَنَةً، يَتِيهُونَ خِلاَلَهَا فِي الأَرْضِ .. وَيَبْقَوْنَ مُتَحَيِّرِينَ مُتَرَدِّدينَ لاَ يَدْرُونَ مَصِيرَهُمْ، وَلاَ يَهْتَدُونَ إلى الخُرُوجِ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، خِلاَلَ المُدَّةِ التِي قَضَاهَا اللهُ عَلَيْهِمْ ". أسعد محمود حومد، أيسر التفاسير، ص٢٧٤.

الله، فكم من عهد وعهد نقضته الأمة الإسلامية بالأمس واليوم، وبعد هذا تريد الأمة أنْ تخرج من هذا التيه، قبل إصلاح علاقتها مع ربها، هيهات هيهات، قال تعالى: **{إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ}** (١).

يقول الرازي في معنى الآية الكريمة: " فكلام جميع المفسرين يدل على أنّ المراد، لا يُغّير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام، إلّا بأن يكون منهم المعاصي والفساد "(٢).

وقد بين الرسولﷺ في حديثه، عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:" يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ، قَالَ:

١() سورة الرعد، جزء من الآية، (١١).

٢() الرازي، مفاتيح الغيب، ١٨/١٩، وانظر: الطبري، جامع البيان، ٧/ ١٧٩، الثعلبي، الكشف والبيان، ٥/ ٢٧٨، الماوردي، النكت والعيون، ٣/ ٩٩، البغوي، معالم التنزيل، ٣٠٣/٤، الزمخشري، الكشاف، ٤٨٧/٢، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، أبو البركات(ت٧١٠هـ)، تفسير النسفي، تحقيق: مروان محمد الشعار، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٥م، جـ٢، ص ٣٥٠، الخازن، تفسير الخازن، ٦/٤، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي(ت٧٥٤هـ)، تفسير البحر المحيط ، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، جـ٧، ص ١٦٩، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٩٠/٢، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي(ت٨٨٥هـ)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، جـ٤، ص ١٣١، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ) الدر المنثور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، جـ٤، ص٦١٦، الشنقيطي، أضواء البيان، ٢٣٧/٢، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٣/ ١٠٢، السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ٤١٤/١، أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير، ١٣/٣، د. حكمت بن بشير بن ياسين، موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، دار المآثر، المدينة النبوية، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، جـ١، ص ١١١، د. وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ١٢٤/١٣.

بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ. وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ في قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِﷺ وَمَا الْوَهَنُ، قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ "[١].

وبذلك يتبين أنّ دواعي التغيير للأمة الإسلامية، هو تلك المخالفات التي فعلتها وتفعلها، وهو ما كان سببها حب الدُّنيا، والسير في ركابها، وكراهية الموت، وما ترتب عليهما من طاعة وموالاة الكافرين على المؤمنين، فكان الجزاء المستحَق هو نزع المهابة من قلوب الأعداء، ثم الانقلاب والنكوص على الأعقاب [٢].

وفي أيامنا هذه، فرطت الأمة في طاعة ربها، وخالفت سنة نبيها ﷺ، لاسيما الحركات التي تَدّعي الالتزام بدين الله تبارك وتعالى، فقد امتثلت مثل هذه الحركات الهدي الظاهري للإسلام، من لحية وحجاب، دون تلمس وترسم القواعد التي بُني عليها المنهج الإسلامي؛ لذا نراها بسبب بُعدها عن هدي ربها؛ ترسخُ في براثن الجهل والتخلف والتشرذم، وما الازدراء العالمي الموسومة به أمتنا الإسلامية، إلا علامة على السخط والعقاب الإلهي لها، فليس هناك دم أرخص من دماء المسلمين. وليس هناك انتهاك لحرمات أحد إلا حرمات المسلمين، ولعل ما يشهد لذلك هو ما يَحْدُث في بلادنا المسلمة في شتى أنحاء العالم.

وبالجملة، فإنه ليس للأمم من عزة ومنعة؛ إلا بالتجافي عن اللذات، والتبرؤ من الشهوات، والبُعد عن البطنة، والتقليل من دواعي الترف والنعيم. ولن يتأتى ذلك إلا بالرجوع إلى العقيدة السليمة، وتصحيح العبادات، وأدائها على النحو المطلوب.

١() أخرجه أبو داود في سننه، برقم(٤٢٩٩). قال الألباني: صحيح.

٢() محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، جـ١، ص١٤٥٠، ١٤٥١.

يقول طنطاوي جوهري: " واعلم أنه لا سبيل لرقي المسلمين إلا بأمر واحد، وهو تعميم التعليم، ونشر العلوم الطبيعية والرياضية والتأمل في عجائب السماوات والأرض، مع التحلي بالدين، فإنّهم بذلك تتفق مشاربهم وتَقُوم قامتهم. فالعلوم وتعليمها هي الدواء، وما عدا ذلك فهو هراء وهواء "[1].

مما سبق يمكن القول، بأنّ الله لا يغيّر نعمة أنعمها على أحد من عباده ابتداءً – إلا إذا كان ذلك نوعًا من الابتلاء – وإنّما يكون التغيير للنعم بسبب تغير النفوس المنعَم عليها، وأنّه قد يقع العقاب على الجميع، حيث لا يقتصر على المغيِّر لنعم الله فحسب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الآخرين؛ وذلك إذا لم يأتمر الناس فيما بينهم بالمعروف وينتهوا عن المنكر، ولا بد لوقوع هذا التغيير من توبة وخضوع لله تعالى.

والملاحظ مما سبق أنّ الأمة الإسلامية في أيامنا قد باشرت الشروط الموجبة لاستبدالها وقد تمثل ذلك في الإعراض والانصراف عن الاستجابة الكاملة لأوامر الله تعالى، فاستحقت بذلك الاستبدال بغيرها، وقد جاء هذا التولي والإعراض على النحو الآتي:

- الإعراض عن منهج الله تعالى. من ذلك: ترك الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تلاشي المساواة بين أفرادها في الحقوق والواجبات، الإفراط في استخدام المال في غير أوجهه ممن يملكونه، التوجه والقصد إلى الإفراط في أنواع الترف والملذات، انتشار الانحرافات الأخلاقية والسلوكية بين أفرادها.
- التوجه والقصد إلى عدم تطبيق أصل من الأصول الشرعية للحكم، وهو مبدأ الشورى، وقيام الحكم على مبدأ الديمقراطية، التي مبناها على الكثرة العددية،

١() **طنطاوي جوهري، الجواهر، ٤/٢٠٧.**

لا مصلحة الأمة، فإنَّه لا يُشْترط فيمن يقوم بعملية الانتخاب كثير من المزايا التي تمكِّنه من الإدلاء برأي سليم.

بمعنى أنَّ الديمقراطية لم تجعل الأهلية محل اكتراث بالنسبة للفرد المنوط به القيام بأعباء المسئولية، لذلك كان ضابط الاستحقاق في الديمقراطية هو الحصول على العدد الأكثر؛ لأنَّ الكم بكل سهولة مقدم في الديمقراطية على الكيف؛ لذلك صار الإدلاء بالصوت حقًا مكتسبًا لمن لا يستحق(١).

فمن هنا صار المبدأ في الديمقراطية، يقوم في الأصل على الكثرة العددية، والأكثرية لا تدل على الحق بالضرورة، قال تعالى: **{وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...}** (٢). وقال أيضًا: **{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}**(٣).

لكل ما سبق استحقت الأمة الإسلامية في العصر الحاضر أنْ تُستبدل بغيرها، وآل مصيرها إلى الضعف والمرض، والتخلف، والرجعية، والتشرذم، والتفرق، والتنحي عن دعوتها ودورها في قيادة الأمم.

١() انظر: د. عبد الله بن عبد العزيز العنقري، الشورى والديمقراطية حقيقتهما وأهم الفروق بينهما، جامعة الملك سعود، الرياض، ص٤٧.

٢() سورة الأنعام، جزء من الآية، (١١٦).

٣() سورة يوسف، الآية، (١٠٣).

الخاتمة وأهم النتائج

أولًا: النتائج.

من خلال دراسة قضية الاستبدال في القرآن، تجلت لي بعض النتائج، هي:

- أظهرت الدراسة أنّ القرآن الكريم يقوم بعرض المسائل التاريخية، وخاصة المرتبطة بمسألة السنن في وحدة متكاملة، عرضًا كليًا متداخلًا متناسقًا، حيث لا يمكن فهم هذه السنن إلا بدراستها المتداخلة.
- كشفت الدراسة عن مجموعة المعاني والمعايير التي يمكن من خلالها اكتشاف هذا النسق المتفاعل والمتداخل لمجموعة السنن، مع محاولة توظيفه في استقراء النواميس التي تحكم مفردات الأشياء، بل وتسخير هذه القوانين المستولدة من هذا النسق المتكامل في معالجة مشكلات الإنسان، والعمران.
- أثبتت الدراسة تعدد معاني لفظة الاستبدال في القرآن بين التغيير، والابدال، والتبديل، والبدل بعوض أو من غير عوض، كما كشفت عن تعدد معاني لفظة (التولي) بين الإعراض، والانصراف، والإباء، والمنع، والرجوع والنكوص، والتوجه والقصد، والمشاركة، والطاعة والموالاة، وهذا يعني أنّ اللفظة لها وجوه كثيرة، وباجتماع هذه الوجوه يتم استبدال الأمم بغيرها.
- أكدت الدراسة أنّ مجمل معاني لفظة التولي تُعد من النواهي الإلهية التي يجب على الأمة البعد عنها؛ لِمَا في الامتثال بنقيضها من الأهمية البالغة في الحفاظ على كيان أمتنا الإسلامية.
- أظهرت الدراسة أنّ التولي والإعراض عن النفير مساوٍ للتولي والإعراض عن الانفاق في سبيل الله تعالى؛ إذ إنّهما وجهان لعملة واحدة؛ حيث لا يوجد نفير

من غير عُدة ومال، يقوم على الإعداد والتأهيل للقيام به. ولعل ما يُؤكد التسوية بينهما هو تساوي النتائج المترتبة عليهما، من تغيير وإبدال وتنحية.

- أكدت الدراسة أنّ سنة الاستبدال في أصلها تستند إلى غاية سامية، وهي: تعبيد الناس لربهم، بإقامة شرائعه، وتطبيق حدوده، فإذا ما تقاعس الناس عن أداء هذه الغاية وتلك المهمة، كانت الموجبات والدواعي لاستبدالهم وتغييرهم.

ثانيًا: التوصيات.

هذا، وقد ظهر لي من خلال دراسة قضية الاستبدال في القرآن الكريم، وجود بعض الموضوعات التي تلمس هذه القضية، يُمكن إفرادها بالدراسة والبحث، والتي منها:

- سنة التمكين في القرآن " دراسة موضوعية ".
- سنة التغيير في القرآن " دراسة موضوعية ".

المصادر والمراجع

- أحمد بن الحسين البيهقي أبو بكر، شعب الإيمان، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية(ت٧٢٨هـ)، اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، ط٧، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية(ت٧٢٨هـ)، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر، أحكام القرآن، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥ هـ.
- أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، أبو الحسين(ت٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت٤٢٧هـ)، الكشف والبيان، تحقيق: الإمام أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م .
- أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس(ت١٢٢٤هـ)، البحر المديد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري(ت٧٧٠هـ)، المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت. د.ت.

- أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي(ت٧٥٦هـ)، الدر المصون في علم الكتاب المكنون، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
- د. أحمد محمد كنعان، أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق.
- الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، معجم ألفاظ القرآن الكريم، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- أسعد محمود حومد، أيسر التفاسير، ط٤، ١٤١٩هـ/٢٠٠٩م.
- إسماعيل بن حماد الجوهري(ت٣٩٣هـ) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، أبو الفداء (ت٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩ م.
- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط١، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.
- د. تركماني، أسباب سقوط الدولة العثمانية، د.ت.
- د. توفيق بن أحمد الغلبزوري، السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم.
- جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، راسم للدعاية والإعلان، جدة، السعودية، ط١٠،١٤١٠هـ/١٩٩٠م، جـ١، ص٦٢.
- د. حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم من خلال القرآن الكريم، دار الهدي النبوي، مصر، دار الفضيلة، السعودية، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

- الحسين بن محمد الدامغاني أبو عبد الله، الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز(ت٤٧٨هـ)، تحقيق: محمد حسن أبو العزم الزفيتي، القاهرة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم(ت٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت.
- الحسين بن مسعود البغوي محيي السنة أبو محمد (ت٥١٦هـ)، معالم التنزيل، تحقيق وتخريج: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة، ط٤، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- د. حكمت بن بشير بن ياسين، موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، دار المآثر، المدينة النبوية، ط١،١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- د. سعد بن محمد حذيفة الغامدي، سقوط الدولة العباسية ودور الشيعة بين الحقيقة والاتهام، دار ابن حذيفة، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م
- طنطاوي جوهري، الجواهر في تفسير القرآن الكريم، المشتمل على عجائب المكونات وغرائب الآيات الباهرات، مصطفى البابي الحلبي، مصر.
- عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي أبو محمد، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- د. عبد الحليم عويس، بنو أمية بين السقوط والانتحار، دراسة حول سقوط دولة بني أمية في المشرق، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- عبد الرحمن بن إدريس الرازي أبو محمد(ت٣٢٧هـ)، تفسير ابن أبي حاتم: تفسير القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، تحقيق:

أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، ط١٤١٧،١هـ/١٩٩٧م.

- عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- د. عبد الله بن عبد العزيز العنقري، الشورى والديمقراطية حقيقتهما وأهم الفروق بينهما، جامعة الملك سعود، الرياض، د.ت.
- علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن، تفسير الخازن، المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري أبو الحسن، النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
- عمر بن علي بن عادل الدمشقي أبو حفص(ت٨٨٠هـ)، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- د. كمال قدة، السنن الكونية والاجتماعية من خلال القرآن الكريم، دراسة موضوعية، جامعة الشهيد حمة الأخضر، د.ت.
- لجنة من العلماء، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، إشراف: مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، ط٣، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- مجموعة من العلماء، عدد من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، إشراف الدكتور: عبد الله بن عبد المحسن التركي، د.ت.
- محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، د.ت.

- محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- محمد الطاهر بن عاشور التونسي(ت١٣٩٣هـ)، التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م.
- محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي الحنبلي ابن القيم(ت٧٥١هـ)، التفسير القيم للإمام ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي(ت٣٩٦هـ)، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله(ت٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري(ت٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، (ت٣١٠هـ)، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقة حميد العطار، دار الفكر، د.ت.
- محمد بن عبد الله أبو بكر ابن العربي(ت٥٤٣هـ)، أحكام القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن، التركي، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت.
- محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني(ت١٢٥٠هـ)، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار الفكر، بيروت، د.ت.

- محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، فخر الدين(ت٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني أبو الفيض الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، د.ت.
- محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(ت٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، د.ت.
- محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)، القاموس المحيط، د.ت.
- محمد رشيد بن علي رضا (ت١٣٥٤هـ)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- محمد متولي الشعراوي، تفسير الشعراوي، أخبار اليوم، قطاع الثقافة، د.ت.
- محمود الألوسي أبو الفضل(ت١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم، دار الجيل بيروت، دار الأفاق الجديدة، بيروت، د.ت.
- ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي، أبو الليث (ت٣٧٥هـ)، بحر العلوم، تحقيق: د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، د.ت.
- نعيم بن حماد المروزي أبو عبد الله(ت٢٢٩هـ)، كتاب الفتن، تحقيق: سمير أمين الزهيري، مكتبة التوحيد، القاهرة، ط١، ١٤١٢هـ.
- د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط١٤١٨،٢هـ.

The Sunnah of Substitution in the Holy Qur'an "Objective Study"

abstract

In the Holy Qur'an, the divine sunnahs are organized by a set of sunnahs that fall under them, including the Sunnah of Substitution. The entry into force of this Sunnah reasons, causes and moral ones . There are a lot of meanings of the word substitution in the Qur'an as change, replacement, exchange, and substituted.The Sunnah of Substitution sets the Muslim community face to face with its missionary and civilizational responsibilities, and the more the society becomes aware of this Sunnah, and the more it becomes aware of the necessity and importance of reform, evaluation, and continuous review. In this way, it is firmly convinced of the necessity of reform, and the importance of the role of reformers in protecting society from regression, contraction and civilized extinction.

Keywords: The Sunnah of Substitution, the Divine Sunnah, abandoning Allah's method, turning away from Allah's command.